
باب إمرأة
البرتو موراڤيا

شباب امرأة



تأليف : ألبرتو مورافيا

ترجمة : خليل حنا تادرس

الطبعــة الاولى القاهرة عام ١٩٨١
الطبعــة الثــانية بيروت عام ١٩٨٣
الطبعة الثــالثة القــاهرة فى ١٩٨٩

الفصـــــل الاول

التحقت بخدمة الجيش وكان سنى لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمرى ٠٠ وكان والدى رجلا فقيرا وعائلا لاسرة كبيرة مكـــونة من فتاتين واربعة أطفال ، ولذلك لم يكن لدى الخيار فى أن أختار تلك المهنة نظرا لفقر والدى الشديد ونظرا لان الدولة كانت تتكفل بمصـــاريف مدرسة الجندية ، ومن هنا بدأ خيط حياتى يبدأ تلقائيا وبـــدون أى اجهاد أو تفكير ، وتخرجت وأصبحت ملازما فى الجيش بعد ســـنوات قليلة ، وأصبح الشاب اليافع معلما صغيرا يهذبه التهذيب وينخـــرط فى سلك الجندية ٠

لم أسأل نفسى ولم يسألنى الآخرون هل يسرنى العمل فى ســلك المدفعيـــــة أم لا ٠٠ ؟

وعندما بدأت أركب الخيول وأعتلى صهوتها وجدتنى فى حالة جيدة ولم أعد أطمع بالمزيد فى شئ ٠٠ وذات يوم جاءتنا الأوامر أن نذهب الى احدى المدن النمساوية وليس مهما أن أذكر اســــمها لأن المراكز النمساوية تتشابه جدا ولا فرق بين واحد وآخر فى هذه الثكنة كما فى تلك ٠٠ اذ ترتفع العمارات على طراز واحد ، بناء كبير ، أرض

لاجراء التمارين عليها ، وكازينو خاص للضابط ، وبالاضافة الى ثلاث فنادق ومقهيين ٠

كانت حياة الجنود فى ثكناتهم لاتتغير ٠٠ يمر الوقت رتيبا هادئا ، مقسما الى ساعات وساعات دون تغيير كبير يذكر فى أمور التسلية ٠٠ نفس الحديث بين الضباط ، كذلك نفس لعب الورق فى المقاهى وسباقات البلياردو ٠

كان موقعى فى الحقيقة يتفوق على موقع مدينة جاليسى التى كنت أعسكر فيها من قبل اذ أنه يقع بالقرب من فيينا ومن ناحية أخرى لايبعد كثيرا عن بودابست ٠

وذات صباح اذ كنت اجلس فى الباتيسيرى وكان يجلس معى الصيدلى صاحب الصيدلية الوحيدة فى المدينة وقد جلسنا نتناول بعض الطعام ونتجاذب أطراف الحديث اذ فتح الباب بعنف وانطلق الهواء البارد الذى يشبه القذيفة فتلسعنا برد قارس ثم تظهر فتاة رائعة الجمال وتتقدم تلك الفتاة من مقصف البار وهى ترسم ابتسامة على شفتيها ، لم يسترع شيئا ما نظرى قدر تلك الابتسامة التى ارتسمت على وجه صاحب المقهى جروسماير وتلك الانحناءة التى حياها بها ٠٠ وبعد أن تبادلت معه حديثا قصيرا أخذ يهىء ما طلبته من الحلوى وأخذت أنا والصيدلى ننظر اليها بفضول شديد بينما هى لم تلتفت حتى ناحيتنا على الاطلاق ، وسمعنا صوت الرجل جروسماير وهو يعدها بأن يرسل ما طلبته الى المنزل فورا دون ابطاء وقد كان ذلك متوقعا منه اذ أنه من غير المعقول أن تحمل صاحبه هذا الجمال

شيئا مابين البضتين كما أنها لاتفكر مثلنا نحن المحكوم علينا بالموت آجلا أم عاجلا أن تدفع قيمة مشترواتها نقدا ٠

عرفنا عند ذلك أنها احد زبائن المحل الرفيع المقام والجاه ٠

وعندما تم تجهيز كل ما أرادته التفتت وتقدم جروسماير أمامها مسرعا وهو يفتح لها الباب كما أن شريكى وقف محييا ، وشكرتهم هى بابتسامة مقتضبة وانصرفت مسرعة الى الخارج ٠ وتركت المكان وهى تنهال عليها عبارات التحية والثناء والاحترامات البالغة ، الأمر الذى دعانى أن أسال شريكى :

ــ من هذه الفتاة الجميلة ؟

ــ كيف لا تعرفها ؟ انها ابنة أخ السيد كيكسفالفا ٠٠ ألا تعرفه ؟

رمانى بهذا الاسم وكأنه وضع أمامى ورقة مالية من الفئة الكبيرة جدا ، ثم أخذ يتطلع الى وكأنه ينتظر ماذا سيحدث لى من تعجب طبيعى وقلت أبادره بالجواب :

ــ آه ٠٠ أجل معلوم ٠٠ ولكننى كما تعلم حديث العهد فى هذه الثكنة وأجهل كل شيء عن هذه المنطقة كما اجهل كل شيء أيضا عن هذا الجمال الرائع الذى شاهدته منذ لحظات قليلة لذا أرجوك حدثنى عن هذه الفتاه كما حدثنى أيضا عن هذا الرجل ٠

ــ ان الرجل هو أغنى رجال هذه المنطقة ، كل شىء ملكه تقريبا هنا ، وذلك القصر الاصفر ملكه أيضا ، ومعمل السكر ٠٠ ومربض الحيول غير الذى يملكه فى بودابست من منازل ٠٠ كما أن الرجل كريم

غاية الكرم ويقيم حفلات يومية ٠٠ فى منزله ويقوم بدعوة الضباط الى تلك الحفلات ، هل تريد أن أذهب اليه وأجعله يرسل اليك دعوة لحضور أحدى الحفلات ؟ ٠

فقلت له بسرعة البرق وكأننى أنتظر بفارغ الصبر :

ولم لا ؟ اننى أكاد أختنق فى هذه الثكنة العسكرية أكتفى بالمشاهدة فقط حتى كرهت الحياة العسكرية كلها ٠٠ لقد عرفت الناس كلهم حتى سئمت الوجوه من كثرة مراقبتى لها ٠٠ فلماذا لا تخرج ذات مساء من تلك السفينة المحكمة الاغلاق الى طريق النجاة ٠٠ ثم تلك الفتاة وعيونها المخملية ، لماذا ، لا أجد رؤياى لها مرة أخرى ؟انه سيكون من دواعى سرورى أن أراها وأن أتعرف الى السيد كيكسفالفا ٠

ولم يكن السيد لى كاذبا فى وعده لى اذ أنه أحضر لى بعد يومين دعوة مكتوبة قدمها لى بكل فخر كتب عليها اسمى وتقول فى سطورها :

، يتشرف السيد كيكسفالفا بدعوة الملازم هوفميلر لتناول العشاء معه فى منزله فى تمام الساعة الثامنة يوم الاربعاء فى الاسبوع المقبل ٠

لبست أجمل ثيابى وذهبت حسب الموعد المتفق عليه وخرجت لاقوم بأول زيارة تعارف أقوم بها وذهبت الى القصر وبعد أن قام الحاجب بفتح الباب وأعطيته البطاقة تأسف وقال لى :

ـ آسف يا سيدى لقد خرج السيد والسيدة الى زيارة هامة وهم يعتذرون لعدم استقبالك ويطلبون فرصة أخرى للتعرف عليك ٠

قلت فى نفسى ، حسنا ان أول زيارة تعارف لم تتم وانصرفت ، ولم يكد يمضى يومين حتى وصلتنى دعوة أخرى من السـيد ٠٠ وزاد ذلك من سرورى اذ تأكدت من أن السيد يرغب بالفعـل فى التعـرف على ٠ وفى مساء اليوم المحدد وقعت حادثة فى المعسـكر استدعت وجودى وتأخرت عن ميعاد الحفل الذى كنت أنتظره بفارغ الصبر ٠٠ ولم اكد أنهى التحقيق حتى تسللت دون أن يشعر بى أحد وتشـاء الصدف أن تزيد الأمور تعقيدا اذ انه لم تكن هناك عـربة تقلنى الى القصرو تأخرنا أكثر وأكثر وعندما وصلت الى القصر كانت السـاعة تشير الى الثامنة والثامنة والنصف أى تجاوزت الموعـد بنصـف ساعة ٠

وكانت المعاطف فى المدخل تتكوم فوق بعضها ونظر الى الحاجب متعجبا من امرى وتأخرى وقادنى الى غرفة الجلوس ومنها الى غرفة الطعام حيث كان المدعوون يتناولون طعامهم وأعلى الخادم عن اسمى فتطلع الجميع الى وهم ينظرون ٠٠ كانوا ما يقرب من الاربعين مدعوا لم يسبق لى أن رأيت أحدهم ، ووقف احد الرجال فعرفت على الفور أنه السيد كيكسفالفا كان منبسط الاسـارير ٠٠ وكان ترحيبه بى غاية فى الكرم مما جعلنى أحس أن هذا الرجـل سيوطد صـداقته سريعا بى ٠٠

وقدمت اعتذارى الى الرجل عن تأخرى فى الوصول متحججا بأن ظروف الجندى دائما رهن بالأوامر التى تصدر اليه ، وأخذ الرجـل يقدمنى الى باقى المدعوين وقال :

هذه ابنتى ٠٠ وأشار الى فتاة لم تنضج بعد رقيقة ٠٠ شاحبة الوجه ٠٠ ضعيفة البنية ٠٠ مثل الرجل تماما والى حد بعيد ، وأخذت الفتاة تتفحصنى بعينين رماديتين لم اكن ألاحظها حتى التفت فجأة فرأيت الفتاة وقد سلطت عيناها على وجهى تتفرسنى خلسة ٠

شعرت فى الثلاث دقائق الاولى بعدم ارتياح من هذا الجمع اذ أننى لم أكن اعرف أحدا منهم ولم يكن بينهم أحدا من رفاقى فى الثكنة أو احد الاشخاص الذين تعرفت اليهم عند وصولى الى المدينة ، وكيف أتحدث مع هؤلاء القوم ؟ ولكن كان من حسن حظى أن مجلسى بين الفتاة التى شاهدتها منذ فترة وقد لاحظت أنها تنظر الى هى الأخرى وابتسمت بهدوء ٠

رائع أن تكون بقرب فتاة على درجة كبيرة من الجمال ، وتعرف الموسيقى ، وأنه لطيف أيضا أن توجد فى غرفة مضاءة بهذا الجمال من تلك الثرية الهائلة الحجم المدلاة من السقف تكاد تتوهج من قوة الاضاءة التى بها ، ودارت دورة الشراب اللذيذ الطعم واصبحت أرى كل شىء أمامى رائعا ، وأدركت ان الصيدلى لم يكن كاذبا للمرة الثانية حينما قال أن قصر السيد لا يقل روعة عن القصور الملكية٠ ٠حتى أننى لم أكل يوما أو حتى أحلم بأن هناك من يأكل بهذه الكثرة وتلك الفخامة ٠

منزل رائع ممتاز ، وسهرة أروع وأمتع ، وأصبحت أتكلم بانطلاق بعد أن تعودت على المكان والمدعوين وأخذت أشرب وأشارك البعض ضحكاتهم الصاخبة ومن آن لآن تتقابل نظراتى مع أيلونا

قريبة صاحبة الدعوة الرائعة ، ودخلنا الى قاعة الاستقبال بعـــد أن فرغنا من الطعام وعزفت فرقة موسيقية وتقدمنا للرقص وشـــاركتنى أيلونا الرقصة الاولى وتقدمت الى جارتى الثانية أطلب منها مشاركتى الرقصة الثانية فوافقت وكانت تجيد الرقص : ولا أظن اننى رقصـــت هكذا طيلة حياتى ·· كانت تجيد الرقص ، وكلما انحنيت أو قربت وجهى منها أشتم رائحة ذكية تفوح من شعرها الجميل ·· كما انه لم تمر بى فترة سعادة كالتى أعيشها الآن · اذ أننى أحسست أننى اريد ان أقوم بتقبيل جميع الناس والتحدث اليهم ثم اننى اخـــذت أنتقل من رقصة الى أخرى ·· وأتحدث مع من يقـــابلنى واضـــحك وتحملنى أمواج من السعادة وتسلمنى الى بر من الطمانينة ·· حتى لم أعد أعبأ لمرور الوقت ·

وفجأة تطلعت الى ساعتى بالصدفة فكانت تشير الى العاشرة مساء ومرت بخيالى فكرة لقد مر على ساعة وانا أرقص والهو ولم اطلب الى الآنسة كيكسفالفا أن تراقصنى او اتحدث معها ·· لقـــد رقصت مرة أو مرتين مع النساء اللاتى أعجبتنى ونسيت قطعا آنسة البيت ·· يالها من وقاحة ·· على أن اصلح هذا الموقف سريعا ·

وأخذت ابحث عنهـــا حتى وجدتها أخيـــرا ترتدى ذلك الثوب الازرق الجميل وهى تجلس بين سيدتين عند آخر الممر وراء طاولة خضراء وهى تتطلع بعينيها شاردة الى سقف الحجرة فاتجهت اليها ووقفت قبالتها وقلت لها :

ـــ هل تسمحين لى يا آنستى ؟

ان ما حدث لي كان رهيبا مخيفا ٠٠ اذ تراجعت الفتاة بهامتها الى الوراء فجـأة وكأنهـا تحاول تجنب ضربة ما ، صعد الدم الى وجنتيها ٠٠ وزمت شفتيها المنفرجتين قبلا بينما تسمرت عيناها فوق تطلعاتي اليها باندهاش وحيرة ، ثم عرتها رعشة هزت جسمها النحيف ٠٠ وفجأة انفجرت باكية ٠

تطلعت واذا بالسيدتين المحيطتين بهـا تنهضان سريعـا لمساعدتها وتهدئة أعصابها ويجلسنها في كرسيها لكي ترتاح ، بينما البكاء يتصاعد قويا ليتحـول الى شهقات متوالية أشبه بانسـان مريض يلفظ أنفاسه الاخيرة ٠

حدث كل هذا وأنا واقف هناك أنظر ، ماذا ؟ ماذا حدث ٠ ودون أن أدري ٠

كيف يجب أن أتصرف ؟ كنت أنظر الى السيدتين وهما يحاولان تهدئة الفتاة وقد وضعت رأسها فوق الطاولة وكفت عن البكاء لتعود اليه بين فترة وأخرى ٠

شهقات تهز جسمها وتزيدها تعلقا بالطاولة امامها وأنا مازلت أقف هناك جامدا حتى الشلل ، يشتد عنقي شيئا من الفتور والاشمئزاز ٠

ولو بحثت في نفسي لانتزعت كلمة (عفوا) رغما عني وأنا أتطلع الى السيدتين ولكنهما لم يلتفتا الي ، فعدت ادراجي الى غرفة الاستقبال وأنا أترنح من المفاجأة ونظرت حولي أتطلع هل لاحظ أحد شيئا عن بعض مما حدث ولكنني لاحظت ان الاخوان كانوا لا يزالون منهمكين في

صدخيهم ، وشعرت أنه ينبغي على أن أتكيء على شيء بجانبي اذ اننى شعرت ان الدنيا تمبد تحت قدمى وان كل شيء يدور من حولى وأمامى ولم أستطع أن أخمن ماذا حدث بالضبط ياترى ؟ هل أقدمت على عمل شيء أم اننى أفرط فى التلفظ بقول شيء أمام الآنسة بدون ان أعى ؟ وفجأة سكتت أصوات الموسيقى وانفصل الازواج ، ولم تكد تلك اللحظات تنتهى حتى أسرعت الى أيلونا وأخذتها من يدها وانتحيت بها الى زاوية منفردة وقلت لها :

ـ أرجوك ساعدينى ، بحق السماء تدخلى فى هذا الموقف الغريب الذى حدث ، اشرحى لى هل هناك خطأ ما منى أم ماذا ؟

ونظرت الى أيلونا نظرة تملؤها الدهشة والاستغراب من هذا الكلام اذ أنها ظنت اننى أتيت بها الى هذا الكلام المنفرد كى اقول لها شيئا مضحكا أو اطارحها الغرام ولما رأيت تلك العلامات استطردت وأخذت اشرح لها ما حدث وقلبى يرتجف من الخوف وانتظرت أن تشرح ايلونا لى سر هذا التحول المفاجيء واذ بها تنظر الى باستغراب أكبر وهى تقول لى :

ـ هل جننت ؟ ألا تعرف ما حدث بعد ؟ ألم تشاهد عيناك ؟

قلت لها بصوت منخفض وقد أحسست أن هناك شيئا بالفعل :

لا .. لا أعرف ولم أشاهد شيئا .

ـ اذن ان اديت .. انها مقعدة .. ألم تلاحظ سيقانها المغطاة .. انها لا تستطيع أن تخطو خطوتين متتاليتين بدون أن تتكىء على عكازيها ..

ثم نظرت الى بغضب وقالت :

كيف تجرؤ على أن تطلب منها هذا الطلب القاسى ، ان ذلك لشىء رهيب ، دعنى أذهب اليها وأشرح لها انك كنت تجهل الحالة التى هى عليها ٠

وحاولت الانصراف ولكنى أمسكت بيدها وقلت لها

ـ لا أرجوك اسدى لى هذه الخدمة أن تشرحى لها هذا الكلام وأنا معك بجوارك ٠٠ اننى لا أستطيع أن اتحمل نظراتها وأنا بمفردى معها بعد ذلك ٠

ونظرت الى ايلونا بغضب ثم انصرفت تعدو الى حيث أديت فى الغرفة التالية ، وبقيت أنا وحيدا أنظر الى المدعوين والقرف يملأ فمى وضقت بما حدث لى حتى أيقنت اننى لن أستطيع الاحتمال فى هذا المكان اكثر من ذلك وظننت ان الجميع سيدركون بما حدث للآنسة اديت وكنت أنا سببه ، انها مدة لا تتجاوز الخمس دقائق فقط بعدها أحسست أننى سأكون محط الأنظار التى ستتجه الى دون شك أنظار محتقرة منددة ، ثم تنتقل الاخبار الى المعسكر وتنتشر فى جميع ارجائه بين كل الرفاق ٠

ونظرت فوقع بصرى على الاب وهو متجهم الوجه لعله عرف بما حدث لابنته ، يعبر الصالون ٠ هل تراه قادما نحوى ؟ لا يجب أن ألقاه الآن ٠ لقد كنت أخاف منه ومن الجميع ، خوف هائل يعترينى ثم دون وعى اندفعت الى خارج الصالون متجها نحو الباب أنوى الخروج من هذا البيت العنكبوتى الذى ينسج خيوطه حول انفاسى ٠

وسألنى الخادم مندهشا :

ــ هل ينوى السيد أن يرحل الان قبل انتهاء الحفل ؟

وقلت له وأنا أرتدى معطفى ودون أن انظر اليه :

ــ اجل ٠٠

كلمة لفظتها وانا أرتجف خوفا هل فعــلا كنت أنوى مغادرة الحفل أم اننى كنت أهرب من خطأ العمر الذى ارتكبته ؟ وجدت نفسى خارج المنزل والبرد يلفح وجهى المتجهم ، وقلبى يخفق ، وأنا ألهث أشبه بالغريق ٠

اننى أعجز عن وصف الحالة النفسية التى كنت أعانيها عندما خرجت من المنــزل لقد توقفت الموسيقى عن العزف خلف النوافــذ المضاءة ولم يكن ذلك سوى فترة استراحة ٠٠ ولكننى تخيلتها انها لم تسكت الا فتــرة الحديث عن فعلتى أى بسببى انا وأن الجميع متلفون الآن حول الفتاة وهم يسبوننى محاولين بذلك أن يخففوا عنها هى ويزيدوا آلامى أنا ٠٠ النساء والرجال جميعهم يعبرون بسخط من خلف هذا الباب المقفل عن هــذا الرجل الذى يدعــو فتاة مقعدة مشلولة الحركة كى ترقص معه ، ثم يركن الى الفرار ٠ وغداً عندما أتذكر ذلك سيتساقط العرق بغزارة من جبهتى ٠

وصلت أخيرا الى حجرتى وقذفت بنفسى الى الفراش وغلبنى نعاس متقطع ومن حين لآخر يظهر وجه الفتاة التى أهنتها أمامى ٠ رأيت شفتيها ترتجفان ويديها تتمسكان بالطاولة ثم الخوف المبهم عندما رأيت والدها يفتــح الباب وينتصب أمامى فقمت من نومى

مذعورا وقفزت من الفراش وجلست الى النافذة حتى بزغ الضوء .

وهدانى تفكيرى الى أن اذهب الى المدينة ومن هناك أرسل اليها باقة من الزهور وبالفعل تم لى ذلك وشعرت الآن بتحسن كبير فعدت الى الثكنة وشربت قهوتى وقمت بعملى المعتاد ولكنى مازلت أشعر بنوع من المرارة التى تحز فى قلبى .

وبينما كنت اتناول طعـــام الغداء فى فترة الظهيرة اذ جاءنى مساعدى وهو يحمل لى خطابا أزرق اللون معطرا يحمل توقيعا رقيقا يدل على أن كاتبته امرأة وفضضت الكتاب وقرأت ما فيه : (اشكر سيدى الولونيل على حسن اختياره من أجل زهور هى اجمل منى تستحقها فتاة غيــرى لذا هل أستطيع أن أعبـــر عن مدى سعادتى الكبيرة .. ارجوك احضر لتتناول معى طعام الغداء .

خط ناعـــم دقيق يذكرنى بتلك الانامل الجميلة التى فـــوق الطاولة ، ثم الوجه الشاحب الذى تلون حمرته فى الحال ككأس ماء تضيف اليه شرابا احمر .

أخـــذنى العجب لصفحها السريع عن خطيئتى ثـــم المهـــارة والصراحة التى تعلن بها عن قصورها ، ثم لبس هناك ما يشير الى اى نوع من الحقد .. وينزاح عن كاهلى ذلك العبء الثقيل الذى حتم على ، كالمتهم الذى ينتظر بفارغ صبر لحظة نطق الحكم الذى ربما يقضى عليه وربما يأخذه الى الحريـــة والبقاء .. وعزمت على الذهاب اليها يوم الخميس القادم .. لا ، ليكن يوم السبت .

لم يكن بامكانى الانتظـــار تلك المدة الطويلة كان الارتبـــاك

يدفعنى الى أن اعرف ان كان قد غفر لى خطيئتى أم لا ، ان على أن أنهى هذا الموضوع بأسرع مما ينبغى •

وجاء اليوم الذى حددته لنفسى للزيارة ، وقررت الذهاب الى هناك سيرا على الأقدام لأن الطريق لم يكن طويلا جدا ، نصف ساعة فقط اذا أسرع الانسان الخطى وكنت كلما اقتربت من المنزل أحس بأن الشجاعـــة بدت تخوننى وان قواى بدأت تخور وفجـــأة قررت التراجع وان أعود من حيث أتيت • أكان من الواجب أن أحضر اليوم فعلا ، آلا يجب أن أعتبر هذا الحدث أمرا مفروغا منه بعدما تلقيت تلك الرسالة ؟

وخففت الخطى اذ أنـــه مازال لدى الوقت الكافى لمتابعـــة الطريق •• عندما نتـــردد نسلك أطول الطرق لذلك عبـــرت النهر الصغير فـــوق الجسر الخشبى ووقفت فى الحقول أتأمل البيت من الخارج وأخيرا بعد أن قمت بدورة حول القصر عدت الى البوابـــة اذ يتوجب على أن أقـــرر الآن • سرت فى الممر الرخامى تحت ظلال الأشجار العالية المنسقة واذا بأحد الخدم يظهر فلم يدهش لرآى ، ثم بدون أن يطرح على أى سؤال أو يأخذ بطاقتى التى كنت هيأتها مسبقا قال لى :

ــ ان السيدات مازلن فى غرفهن فليسمح الكابتن بالانتظار فى الصالون •

حاولت أن أشغل نفسى بالتأمل فيما حولى من اثاث وتحف ولكن لم يكن لدى الوقت الكافى واذا بى أسمع صوت أقدام تسير

انها عكازات أديت واذا بيد غير مرئية تفتح الباب على مصراعيه ، انها كانت يد أيلونا التى كانت ترافق اديت واتجهت نحوى •

ـ كم انت لطيف بمجيئك •

وقادتنى الى الركن المشئوم ، نفس الزاوية ونفس الكرسى •• وراء الطاولة حيث كانت تجلس الفتاة المقعدة وتستقبلنى ببشاشة مدروسة تبتسم ، سيطر علينا ارتباك وتململ حتى لم يدر ما يقوله كل منا الى الآخر • واذا أيلونا تتدخل لتفض ذلك الصمت وتخرجنا من حيرتنا :

ـ ماذا تريدنى أن أقدم لك يا سيدى ، شايا أم قهوة ؟

ـ الذى ترغبينه أنت •

ـ لا • الذى ترغبه أنت دون مجاملات طبعا •

ـ الشـــاى اذن ••

وسررت لأن صوتى كان جهوريا لا ارتباك فيه •

كان ذلك مهارة من تلك الفتاة لتخرجنا من الحيرة التى تغللت علينا • أما الارتباك فقد نتج عن تركها لنا وانصرافها الى تدبير شئون المنزل مما تركنى وحيدا مع أديت وحان الوقت لكى نبدأ الحديث •• ولكننى كنت أشعر بأن هناك ما يمنعنى عن النطق وتوجيه الكلام الى تلك الفتاة التى تجلس أمامى ، ولربما ظننت أننى كنت أتطلع الى الفراء الذى يغطى اقدامها المشلولة ولحسن حظى أن أديت كانت تتمتع ببرودة لا تقل عن برودتى فتطلعت الى وقالت :

ـ لماذا لا تجلس يا سيدى ؟ اجلس هنا بجوارى •

قدمت الى المقعد وقالت بحيوية :

ــ على أن اشــكرك أولا على الزهــور التى أرسلتها الى ، أنظر ٠٠ كم هى جميلة فى ذلك ألاناء ، ثم ، ثم على ان اشكرك على انك حضرت ملبيا الدعوة اليوم ٠٠ اننى اريد ان أقدم اعتذارى لك عى عصبيتى ذلك اليوم انه مخيف ٠٠ لم أستطع أن أنام ٠٠ وكم كان تصرفى شائنا لم استطع أن أنام وكنت أتمنى أن اقول لك ان فكرتك جميلة اذ كيفـيمكنك أن تشك فى حالتى الصحية ٠٠ لقد كنت أجلس بطريقة تمكننى من مشاهدة الراقصين وعندما حضرت كنت فعلا أتشوق للرقص ٠٠ انا أيضا اذ أننى أجن بالرقص ٠٠ يمكننى البقاء ساعات وساعات اتشوق للرقص وانا اتطلع الى الناس وهم يدورون ويلفون واحس ان كل حركة يقومون بها هى ما أقوم به أنا أيضا ليس هو الاخر الذى يرقص بل أنا التى تدور ٠٠ تنطوى ٠٠ تهتز ٠٠ تتمايل ٠٠ كنت وانا صغيرة أرقص جيدا يخالجنى سرور كبير والآن عندما أحلم يتبادر اول ما يتبادر الى ذهنى الرقص ولعل ما اصابنى هو فائدة لأبى والا كنت الآن راقصة فى إحدى الملاهى ٠٠ ليس هناك ما يستهوينى ويثيرنى كالرقص وها انا اليوم أجمع صور الراقصات واحتفظ بها فى البوم جميل ٠٠

شعرنا بحركة خلف الباب ودخل الخادم يحمل صينية الشاى وقدمت لنا ايلونا ثم جلست بالقرب منا ووجدتنى أعقد عملية المقارنة بين الفتاتين ٠٠ انها عملية غير عادلة أن اقوم بها ولكنى وجدت رغما عن نفسى ، اننى اعقدها ٠٠ ان إيلونا اصبحت إمرأة بكل معنى

الكاملة رشيقة القوام مملوءة الجسم ، تبدو الى جانبها ولدا صغيرا لم يكتمل نموه بعد ٠٠ انه تضاد غريب يجمع بينهما ٠

يودون حضن الأولى والرقص معها لحلاوتها ٠٠ اما الثانيــة فيخففون عنهــا ويدللونها كالمريض ويرعونها ٠٠ اذ أن شخصيتها لا تستقر عند حال تبعث على الارتباك فى النفس الانسانية ٠٠ لا يستقر وجهها لفترة واحــدة تتطلع الى اليمين واليسار وأحيانا تسترخى او تتراجــع الى الوراء كالمنهوكة القوى ، تتكلم بنفس العصبية التى تتحرك بها ، ولكن الوقت لا يسمح لى باعطاء ملاحظات أكثر عنها ٠٠ اذ أنها تعلم بسؤالاتها المحرجة وسرعة نفاقها كيف تسترعى الانتباه ٠٠ وفجأة أجدنى مندفعا فى حديث حيوى مفيد ٠

مرت ساعة هكذا وربما أكثر لاحظت طيفا يطل من الصالون شخص ما يدخل وكأنه يخاف أن يزعج الموجودين انه والد أديث وقال الرجل عندما حاولت أن اقف له ٠

ــ أرجــوك ٠٠ أرجــوك اجلس ايها الكابتن ثم تقدم وهو يصافحنى بحرارة ثم إنحنى وطبع قبلة على جبين ابنته ٠٠ وأخذ يتحدث معى فى شتى المواضيع عن التكتيك وعن قائدى ، وبدا لى انه يعرف أمورنا الشخصية منذ سنوات عديدة ٠٠

سأبقى لدى الآخر خمس عشرة دقيقة ثم أستأذن فى الانصراف دون أن اسيء الى أحد ٠٠ واذا الخادم يقرع الباب ويتقدم من أديث ثم يهمس فى أذنيهــا بكلمات لم تجملها تتمالك نفسها فصرخت فجأة :

لينتظر ٠٠ أو ليذهب ويدعنى أعيش فى سلام ٠٠ ليذهب ، لست فى حاجة اليه ٠

سبب لنا هذا الانفعال المفاجىء انزعاجا ظاهرا ، رحت ألوم نفسى بعده على تأخـــرى الى مثل هـــذا الوقت ٠٠ ثم تطلعت الى تخاطبنى بعصبية :

ـــ لا ، أرجوك أن تبقى ، ان هذا ليس شيئا هاما ٠

وقال الأب الذى كان من الواضح انه يفهم الثورة النفسية التى تعانى منها أبنته وتقدم منها محاولا أن يهدىء من روعها :

ـــ ماذا بك يا أديت ٠٠ هدئى من روعك يا حبيبتى ٠

وعادت فجأة الى نفسها تفكر ثم تعتذر عن تصرفها غير اللائق أمام الحضور وخاصية بالنسبة لوجودى أنا فى ذلك الوقت بينهم ٠٠

ـــ اعذرونى ٠٠ كان بامكان جوزيف الخادم أن بنتظر دون أن يدخل هكذا فجأة ٠٠ ليس هناك سوى هذا الجلاد الذى يزورنى كل يوم ٠٠ انه المدلك الذى يرغمنى على ممارسة تمارينه اللعينة التى يسميها علاج طبيعى ٠

ثم تطلعت الى والدها تتفحصه بتحدى كأنها تعتبره المسئول الأول عن كل ما يحدث لها من متاعب وما تعانيه من قسوة ٠

وقال الرجل لابنته :

ـــ هدئى من روعك يا بنيتى هل تظنين أن الدكتور كوندور ٠٠

لم يكمل الرجل عبارته بل توقف فجأة اذ ارتسمت على شفاه الابنة ابتسامة صفراء تهزها بعصبية واختلجت ارنبة أنفها هكذا

ارتجفت شفتاها ذلك المساء لذلك شككت بحالة هستيرية ثانية ، واذا بها فجأة تتورد وتتمتم :

ــ حسنا ، حسنا ، سأذهب وان لم يكن فى ذلك فائدة ترجى ، سامحنى أيها الكابتن ٠

انحنيت محييا لها وهممت بالانسحاب ثم اذ بها تقول :

اذ بها تقول :

ــ لا ، ابق مع والدى بينما أحاول أنا السير قليلا مع ذلك المدلك ٠

نفظت هذه الكلمات وكأنها تهــديد حاسم ثم تناولت جرسا صغيرا من البرونز كان فوق الطاولة وهزته بعنف واذا بالخادم يطل من الباب ٠

وطلبت اليه أديت قائلة :

ــ ساعدنى ٠٠ أرجوك

ثم طرحت الفراء الذى يغطى رجليها وانحنت أيلونا تهمس شيئا فى أذنها فتجيبها بكلمة مقتضبة :

ــ ليرفعنى جوزيف ، وسأذهب بنفسى ٠

ان ما حدث فيما بعد كان رهيبا انحنى الخادم يرفعها واضعا يديه تحت ذراعها وما أن وقفت حتى تطلعت الينا تحدجنا بنظــرة مقاتل ٠٠ ثم تناولت عكازتيها وانطلقت تدق بهما بلاط الممر ، كانت تود فيما يبدو أن تنتقم منا جميعا أن تؤلمنا وتجعلنا نحس بمــا تعانيه هى من الآلام المبرحة الجسدية منها والنفسية ، كأنها تود أن

ترمينا نحن الحاضرين أمامها من ذوى الشأن بسهامها المميتة القاتلة ونلحن بدا ما استطاعت من التهم ، شعرت أمام هذا التحدى الخطير والذى يفوق كل ما حدث أولا بألف مرة ، الى اى درجـــة تتألم من ابتعادها • أخيرا كان هذا قد استمر الدهر كله ، ما ان خطت بضـــع خطوات نحو الباب حتى بدأ جسدها النحيل يتمايل يمينا ويسارا •

لم أكن أملك الشجاعة الكافية لاتطلع اليها ولو دقيقة واحدة اذ ان الضجة القاسية وصرير آلتها ثم لهاثها المتقطع كانت تحز فى نفسى وأحس بأن قلبى يكاد ينفطر •

لقد تركت الغرفة وأنا مازلت أسترق السمع أتتبع صـــوت خطواتها المريضة حابس الانفاس حتى أختفى الضجيج وتبدو عندما سمعت صوت الباب الخارجى يقفل وراءها •

عندئذ فقط تجرأت أن ارفع ناظرى ، لقد ترك والدها مكانه ووقف فى النافذة يتطلع مشتت الارادة مكفهر الوجـــه •• ثم أنحـــدر وراء الستار الشفاف حيث لم يعد باستطاعتى سوى مشـــاهدة خيـــاله يرتجف • قد هزه هذا الحادث وهو الذى يشاهد كل يوم الآلام التى تعانى منها أبنته •

وقال الرجل بلهجة متكسرة حزينة :

ــ ارجوك يا سيدى •• لا تتضايق من اقوالها المفاجئة •• ولكن لا أظن بوسعك أن تتخيل ما عانته طيلة هذه السنين •• اختبـــارات مستمره •• والنتائج بطيئة •• اننى أفهم عصبيتها ولكن ما العمل ؟ علينا أن نجرب كل شىء •• أن نحاول دائما فهو واجبى واستمر الرجل يقول :

ــ لو تعرف كيف كانت فى الماضى ٠٠ كيف كانت تركض فوق السلالم ٠٠ والغرف ٠٠ وفى كل مكان ، حتى صرنا نتوقع أن تسقط يوما كانت تعبر فوق جوادها الصغير حتى لم يكن باستطاعة احد أن يتبعها كانت رشيقة ، خفيفة ، تشتعل حماسا ٠٠ تقوم بكل حركة بخفة تزرع الخوف فى نفوسنا أنا وأمها ٠٠ كنا نحس بأنها ستطير ، مستعملة ذراعيها كالأجنحة ٠٠ وفعلا هذا ما حصل لها وحدها ٠

وانحنى رأس الكهــل أكثر فأكثر تحت الطــاولة ، تعبث يده بالأوانى المنتشرة فوقها ٠٠ ويأخذ من بينها لاقطة السكر ويرسم بها اشياء مبهمة خيالية ٠٠ انه خجــل لا يســـتطيع أن يتطلع الى ٠٠ وبالرغم من ذلك قال :

ــ بامكاننا أن نخفف عنها ونقوم بتسليتها ٠٠ انها تسر لأدنى وأقل الأشياء كالأطفال تماما ، انها تضحك من أشياء تافهة بســيطة لا معنى لهــا وتتحمس لأية زيارة كانت ٠ لكــم وددت ان تراعــا عندما تسلمت الأزهار منك ، سرت بها جدا وانمحت من ذاكرتها كل أثر للاهانة التى سببتها لها ، وســوف لا ترتاب أيضا من رهــافة احساساتها ونعــومة أفكارها تحس كل شىء أقوى منهــا ٠٠ انى اعرف ذلك فهى تأسف لما حدث منذ دقائق ٠٠ ولكن كيف يمكنهــا أن تسيطر على نفسها ٠٠ عندما تعلم أن الشفاء يتّسر ببــطء ٠٠ كيف تهدأ وتسكت عندما تعلم أنها تتلقى الضربات دون أن تســـتطيع الدفاع عن نفسها وهى لم تسىء الى اى انسان كان ٠

واستمرت يده المرتجفة ترسم الخطــوط الرهيبــة ٠٠ وكأنه

استيقظ نجاة ليشاهد أمامه رجلا غريبا لأول مرة ·· واذا بصـوته يتبدل ويصبح ناعما رقيقا ويستمر فى أعتذاراته المتكررة :

. سامحنى يا ابنى ·· بأى حق أجرؤ على ازعاجك بأمـورى وهمومى هذا الأناء ·· قـد أنى عفـويا ·· أردت أن أفسر لك ·· لا أريدك أن تظن بها سوءا ··

لست أدرى أين أجد الشجاعة وأقاطع حديث الكهل ·· ونجـاة منصت ·· لم أقل شيئا بل اكتفيت بأن اخذت يده النحيلة وشددت عليها بين يدى ·· وتطلع الى الرجل مندهشـا من وراء نظـارتيه ، نظرات مريبة تحاول الالتقاء بنظراتى ·· كنت أخافه أن يتكلم ·· وكأنها تفيض وشعرت أنا بتأثر ·· لم أعهده من قبـل فانحنيت

وكأنها تفيض وشعرت بتأثـر لـم أعهـده من قبـل فانحنيت

وودعته وانصرفت ··

الفصل الأول

كان فيلقنا ــ فرقتنا ــ يقوم بتمارينه صباح كل يوم ، وكنت لاتسمع سوى صوت حوافر الخيول التى تنطــلق بسرعة وهى تثير الأتربة والغبار من حولنا ٠٠ وكنت وانا اسابق الريح بفرسى أتمنى أن ازيد من سرعتى وأذهب الى آخـــر العالم ثم التفت من آن الى آخر . مزهوا بأننى سبب هذه الفرحة الكبرى التى عليها الجنود ٠٠ اتفقد مرافقى لقد انمحى كل أثر للتعب عن سيمائهم ٠٠ وعندما عرفوا أننى انتطلع اليهم اعتدلوا فى سروجهم وابتسموا بشجاعة وغبطـــة ٠

وها أنا أصرخ فيهم من جديد آمرا :

فوجىء الجنود بهذا الأمر وامسكوا بأعنة جيادهم ليوقفوها ثم تطلعوا الى جميعا يستوضحون الأمر ٠٠ اذ اننا كنا نسير فى الحقول دون توقف حتى وصلنا الى أرض التمارين ولكننى أحسســت بشىء ما يشد بعنان الجواد ويوقعه ، تذكرت فجأة شيئا اذ لاحظت فى الجهة الشمالية وعند آخر الأفق المربع الأبيض ٠٠ جدران قصر وأشـــجار حديقة البرج المستطيل الشكل ، ثم تملكتنى فكرة غريبة مدهشة لربما كان هنـــاك الآن شخص يراقبك ٠٠ شخص ما أهنته لشــــغفك بالرقص ٠٠ وها أنت الآن تعاود الكرة بركوبك الخيل ٠٠ شـــخص ما مقعد ٠٠ مشلول الأطراف موثقهـــا ٠٠ يتألم لمشـــــاهدتك تطير كالعصفور ٠٠ وخجلت من هذا ٠٠ ثم تركت رجالى خائبين يكملـــون

سيرهم على مهل وهم عبثا ينتظرون منى أن احثهم على الاسراع من جديد حقا وفى نفس البرهة انتابنى شعور الازعاج ٠٠ تبين لى كم هى مؤلمة ومبهمة للأفكار أن تحرم من تسلية ممنوعة عن الآخرين ٠٠ مسألة تافهة لا معنى لها ٠٠ بينما نحن نلهو ونعبث هناك رجـــال يتعذبون ويلفظون أنفاسهم فى أسرتهم ٠٠ ان التعاسة تخيم فى ملايين المنازل ـــ هناك أناس يتألمون من الجوع والمرض بينما آخرون يلهون ويلعبون ٠٠ اننا اذا أردنا أن نفكر بكل ما ينتاب العـــالم من بؤس وما فيه من شقاء لفقدنا لذة النوم وفارقتنا الابتسامة الى الأبد ولكن ليس الشقاء الذى تتصوره هو الذى يزعجك ويهددك ، انما هو البؤس الذى تراه بأم عينك وتحسه ، وتتابعت الأفكار والذكريات فى خاطرى ٠٠ ثم تنبهت وأنا أصل أمام القصر ٠٠ أرتجف وقلت فى نفسى :

عليك أن تتخلص من عاطفتك هذه ٠٠

ثم قلت للجنود :

ـــ الى الركوب ٠٠ الأمام ٠٠

كنت حتى ذلك الوقت عيش فى حلقة مغلقة ٠٠ ضيق الآفـــاق محدودها لم أهتم الا بما يشغل أصدقائى ثم لم يسبق لى أن انحزت الى أية جهة مهما كانت ٠٠ كما ان صلاتى بعائلتى كانت على ما يرام ٠٠ وديننى لا بأس بها ٠٠ ولكن هذا الوسواس الذى ظهر فى حياتى كان له أثر كبير ، أثر مفرح وسعيد ، وفجأة يعاودنى شعور غـــريب يقنعنى فليس هناك ما يثير داخليا ولا حتى خارجيـــا : ولكن نظـــرة الغضب من تلك الفتاة والتى كنت أقرأ فيها قوة ألم عائلة جعــلت

شيئا ينفجر فى داخلى وشعرت بحرارة تنتابنى فتسبب تلك الحمى الغريبة التى لم أكن أعيها كما لايعى المريض أسـباب مرضـه ٠٠ عندئذ عرفت اننى خرجت من تلك الحلقة القاسية حيث امضيت فترة لاباس بها من الحياة الهادئة وها أنا اليوم ادخل الى منطقة جـديدة مثيرة ومقلقة ، فى آن واحد ، ككل شىء جديد ٠

رأيت أمامى هوة سحيقة تنفتح يشدنى اليها شـعور لقيـاس عمقها وفى نفس الوقت كان لدى احساس ولـربما غـريزة تنبهنى من التجربة والانزلاق او الرضوخ هكذا :

هدا بكفى ٠٠ لقد تسامحت الفتاة وانتهت هذه القصية بالنسبة لك ٠

يقول الصوت الآخر :

عد الى صداك وتخلص من التردد الذى يسيطر عليك ٠

وتعاود الأولى :

ـــ تنبه ولا تتداخل فى شىء انك لازلت شابا بسيطا ولست مخلوقا لمثل هذه الامور الغير طبيعية لربما قمت بأعمال تـمهة أكثر خطورة من الاولى ٠

لم يكن لى أن أختار بين هذه أو تلك اذ اننى وبعد ثلاثة ايام وجـدت فى مكتبى دعـوة من السيد كيكسفالفا ادعـوتى الى العشاء معه يوم الأحد المقبل ٠

وأعترف وأقول ان هذه الزيارة جعلتنى فخورا جدا ٠٠ ازهو بنفسى هكذا عرفت أنهم لم ينسونى فى تلك الحفلة الهامة ٠٠ وبادرت

بالذهاب ولم أندم هـذه المرة على ذهابى لقـد كانت امسية رائعة للغاية ، اذ كنت أشعر أننى ألقى عناية خاصة عن سائر المدعوين ٠٠ وبعد تناول الطعام جلس المدعوون يتناولون لعب الورق بينما أنا جلست مع الفتاتين ولست أدرى لم كنت أراهما جميلتين هذا المساء ربما كان لمزاجى المعتدل فى تلك الامسية ٠٠ لم تكن أديت شاحبة صفراء ، مريضة ، كما بدت من قبل ٠٠ ربما كانت تصنع بعض المساحيق على وجهها ، وكانت ترتدى ثوبا أحمر اللون رائعا دون اى شيء تغطى به ساقيها ٠

أما أبلونا فقد بدت لى أجمل مما عرفتها ٠٠ فكنت أجد نفسى مدفوعا أن أمر بنظرى عليها كلما مرت أمامى ٠٠ وبينما كنت منهمكا فى الحديث مع الفتاتين يسيطر علينا هذا الجو الهادىء الرائع أحسست أن هناك أنظارا مسلطة على تراقبنى ٠٠ تأتينى من هناك نظرة حارة سعيدة ٠٠ كانت نظرات الأب وهى تعبر عن سروره للحالة النفسية الرائعة التى كانت عليها أديت فى ذلك المساء ٠٠ واستمر الحال هكذا طيلة الليل دون أن يفكر أحد من المدعوين فى الانصراف ٠٠ حتى قمت أنا أستأذن وضغطت أديت على يدى وهى ترجونى ألا أبخل بزياراتى عليهم ووعدتهم بذلك وانصرفت ٠

ولم انم تلك الليلة من جراء التفكير فى الكلمات التى وجهها السيد كيكسفالفا من أننى جلبت السرور له ولابنته بتلك الزيارة وألح هو أيضا فى تكرارها معللا ذلك بأننى أصبحت صديقا لجميع أفراد العائلة ٠٠ وهكذا كنت أمضى أوقات المساء دائما عند تلك

العائلة طيلة أسابيع عديدة ٠٠ ثم استحالت هذه الزيارات الى عادة لا خطر فيها مطلقا ٠٠ كم هو رائع بالنسبة لى أن أجد منزلا كهذا آوى اليه من البرد القارس وارتياد تلك المقاهى المزعجة ٠٠ كنت دائما عندما تنتهى خدمتى حوالى الرابعة والخامسة أذهب تلقائيا الى منـــزل كيكسفالفا ، وما ان أطرق الباب حتى يفتح لى الخادم الباب ويتطلع الى مسروراً ٠

كنت أجدنى أجلس كل يوم الى فتاتين ، كان القرب من فتاة مقعده هو منتهى سعادتى وأنا أتطلع الى ذلك الفم الصغير تلطفه ابتسامة ما او تهزها رجفة عارمة ، يسبب لى فرحا كبيرا ٠٠ أكثر ما تسببه أى مغامرة مثيرة ٠٠ وبفضل هذه الأمور اكتشمت كم تعلمت من أشياء طيلة هذه الايام وكم من مناطق تكثر فيها الاحساسات الطيبة ، كنت أجهلها ٠

دهشت كثيرا عندما اكتشفت أن لى شجاعة الاحتمال والصبر ، فالتفهم الأول لامر ما يجلب تفهما لامر آخر ٠٠ ثم ان الذى يستطيع الصمود والتغلب علي أول ألم يحل به يمكنه مجابهة ما يؤلمه فيما بعد أمام الثورات بل العكس فكلما كانت غير عادلة غير منتظرة كلما أثارتنى أكثر فأكثر ٠٠ ورويدا رويدا بدأت اتفهم لماذا كانت زياراتى الى البيت تسر الأب وابنته ٠٠ أن مرضا مرمنا لا يتعب صاحبه فقط ، بل يجهد ذلك المشفق ، ان الشعور القوى لا يسعه أن يستمر حتى اللانهاية ٠٠ فلا شك أن الرجل وأبنته كانا يتألمان جدا ولكنهما قانعان بالمصيبة يعرفان كيف يتحملانها ٠ يتقبلانها كأى أمر آخر وينتظران وابصارهما شاردة أن تحل نهاية هذه الحالات

الصعبة التى تعانى منها أديت ٠٠ انهما لا يخافان مثلى عندما ينفجران غضبا ٠ وبما اننى كنت الذى يسببون له كل مـرة هزة جديدة ، كنت أيضا الوحيد الذى تخجل منه المريضة أمامه عندما تفقد برودة أعصابها ٠٠ اذ أننى عندما تثـور أوجه اليها انذارا بسيطا وأقول ٠

ـ مهلا يا أديت ٠٠ مهلا ٠٠ مهلا ٠

وكانت تلك الكلمات تكفى لكى تهدىء من روعها بالفعل ٠٠ وتتورد وجنتاها خجلا ولولا شللها لولت الادبار من أمام نظراتى ٠

لم أستأذنها أبدا اذا ما طلبت بصوت فيه صيغة الترجى الذى يقلقنى ٠

ـ ولكنك ستعود غدا ، أليس كذلك ؟ ألم تغضب للحوادث الصغيرة التى وقعت اليوم ؟

فى هذه الأثناء فقط عرفت مدى القوة التى تتركها فى هـذه الشفقة ٠

ولكن زملائى فى الثكنة كانوا لا يعرفون ان الدافع لذهابى الى هناك هو هذا النوع من الشفقة ٠٠ وعبثا حاولت أن أشرح لهم ذلك ، ولكن ماذا تفيد هذه الشروح عندما يفقد الانسـان توازنه الداخلى ، فكان لهزء زملائى بى تأثيره ، هل حقـا بمجرد الشفقة والاستساغة تذهب كل يوم الى منزل هؤلاء القوم الاغنياء ؟ كنت أسأل نفسى أنا أيضا دائما هذا السؤال ٠٠ أليس فى تصرفاتى نوع من العبث والسرور الداخلى الخاص ؟ على كل الاحوال يجب أن أوضح ذلك ٠٠ ولذلك يجب على أن أقلل مـن زياراتى لهـذه العائلة فى المستقبل ٠٠ غدا لن أذهب ٠

ونفذت فى الغد ما عزمته بالامس ·· وقلت حالا ننتهى الخدمة وأذهب الى المقهى وأجلس مع أصدقائى نقرا الصحف ونلعب بالورق كنت العب خائفا اذ اننى أدركت أن أديت الآن بانتظار وصولى اليها لشرب الشاى معها ·· وتصادف أنه عندما كنت أتأخر عن وصولى أليها كانت تسألنى :

ــ ماذا حدث اليوم ·· لقد تأخرت عن موعدك اكثر من ربع ساعة ؟

تراهم الآن يتطلعون فى ساعاتهم بقلق كما أتطلع اليها أنا الآن ·· يجب أن أتصل بهم تليفونيا ·· بأننى لن أستطيع الحضور اليهم اليوم ؟ أو أن أرسل رسالة مع مساعدى مثلا ؟

واقترح أحد الاصدقاء أن نتنزه على شاطىء البحر ·· وبالفعل خرجنا واذا بى ألمح طيف امرأة بالقرب منى ونظرة منها تتفحصنى ·· ونظرت اليها ، أليست هى أيلونا ؟ أين تراها ذاهبة وبسرعة هكذا ؟ انها ليست خطوات فتاة تتنزه بل انها خطوات متسابق فى حلبة سباق · واستأذنت من رفاقى وأسرعت وراءها :

ــ ايلونا ·· ايلونا ··

وتوقفت دون أن تبدو مندهشة لسماع ندائى ·· أجل انها رأتنى وهى تمر ··

وقلت لها بعد أن ادركتها :

ــ انه لرائع أن القاكا فى المدينة ·· أين تريدين الذهاب ؟

ــ انى عائدة الى المنزل انهم ينتظروننى الآن ·

ــ هل لك فى نزهة قبل العودة ؟

ــ اننى فى عجلة من أمرى •

ــ حسنا ، فلنتمهل خمس دقائــق ، أما اذا كنت تخافين القصاص فسأزودك بكلمة اعتذار •• اتبعينى فقط •

ــ لا •• قلت لك أنه يجب على العودة فالسيارة تنتظرنى هنــاك •

وبالفعل كانت هناك سيارة تنتظر فى الميدان •

ــ ولكن هل تسمحين أن أرافقك الى السيارة ؟

أجابت شاردة بهموم ؟

ــ أجل •• ولكن لماذا لم تحضر بعد ظهر اليوم ؟

ترددت قبل أن اجيب ولكنى قلت :

ــ لقد كان عندى بعض التدريبات •

ونظرت اليها فوجدتها تعض قفازيها وهى تتأرجح بعصبية ثم قالت بعجلة :

ــ اذن هل ننتظرك على العشاء ؟

وقلت فى نفسى : يجب أن اذهب •

ــ نعم •• نعــم بكل سرور •• ولكن ليس هــذا المســاء •• لدى اجتماع لا أستطيع التخلف عنه •

تطلعت الى الفتاة بمنتهى القسوة ولم تجب بشىء •

وفتح الســائق باب السيارة لها وأغلقت هى بابها بعــد أن دخلت فيها بعنف ثم قالت من وراء الزجاج :

ــ وغدا •• سنراك أليس كذلك ؟

وقلت بمنتهى البرود بعد أن نظرت اليها مليا :

ــ غدا •• أجل بالتأكيد •

وانصرفت الفتاة وتركتنى فى حيرة من أمرى •

الفصل الثالث

وتقدمت السيارة ووجدتني أقف متضايقا من الطريقة التي كانت تحدثني بها ايلونا انني لاحظت نوعا من العصبية في كلامها نحوي ، ام تراها غضبت كأنها تخاف أن يشاهدها أحد بصحبتي ، ثم هذا الدعاء المفاجيء ، انه كان على ان أحملها تحياتي الى عمها والى أدهبت ٠٠ ان هؤلاء الناس لم يسيئوا الى في شيء ٠٠ ولكنني من جهة ذاتية شعرت بارتياح عميق لانني لم أخضـع ، لا يمكنهم الآن أن يظنوا بأنني سأفرض نفسي فرضا عليهم وعلى حياتهم ٠

ومهما يكن من أمر الاتفاق بيني وبين ايلونا على أن ازورهم غدا برغم هذا سوف أخبرهم تليفونيا بموعاد قدومي يجب دائما أن أراعي أصول الزيارة حتى أكون دائمـا في جانب الحذر لأن ذلك أوثق دائما ٠

كنت أقصـد بذلك أن لا أحل في العائلة فجأة ، ومن الآن فصاعدا سأتصرف هكذا حتى أتأكد من أن زيارتي لهم شيء مرغوب به وتوجهت حسب الموعد ووجدت الخادم أمام الباب بانتظاري ٠

وما أن دخلت حتى بادرني قائلا :

ان الآنسة تتنزه في الشرفة وترجو سيدي أن يلحق بها الى هنـاك ٠

وسكت قليلا وهو يرى أثر كلامه على نفسي ثم أردف قائلا :

ـ أظن أنه لم يسبق لسيادتكم أن صعدتم الى تلك النافذة ولكنك ستعجب يا سيدى من المنظر الذى ستراه من فوق ٠

وكان الرجل محقا فى كلامه اذ انه لم يسبق لى أن صعدت الى ذلك البرج من قبل رغم أن بناءه قد أثارنى مرات عديدة ٠

وقد قص على الأب من قبل ٠٠ كيف أن أديت كانت تتسلق هذا البرج مما كان يثير مخاوفهم ومن أجل ذلك اختارت الفتاة تلك الزاوية مكانا تخلد اليه وترتاح ٠٠ كم من الأحيان شاهدها والدها تتطلع الى ذلك المكان شاردة الابصار حزينة ٠

وأراد الأب أن يقدم لابنته مفاجأة سارة فاستغاد من وجودها فى النمسا للعلاج أخذ يعيد بناء البرج لابنته ويبنى فى أعاليه شرفة جديدة تستريح فيها أديث وقت أن تشـــاء ٠

وعندما عادت فى أواخر الخريف ، وقد تحسنت صحتها بعض الشىء جهز والدها الشرفة بمصعد خاص بها مما سمح للفتاة أن تصعد الى هنا ساعة تشاء ٠

وهكذا وجدت أديث طفولتها تعود اليها دون علم مسبق منها ٠

وقادنى الخادم الى المصعد وكان بامكانى أن أرى من أعلى حتى حدود الأفق تلمع فى الشمال ، ثم شعرت بتلك الوداعة البسيطة التى تكونها هذه المنطقة المنفردة ، ولكن لم يكن باستطاعتى البقاء طويلا كى أتأمل هذا المشهد الرائع اذ أنه كان يتعين على أن أتقدم من أديث محييا على الرغم من أننى لم أرها فى بادىء الأمر اذ ان الكرسى الخيزران الذى كانت تجلس فوقه كان بالاتجاه المعاكس ويحجب وجه الفتاة عن القادم ، وتم ذلك عندما شـــاهدت الطاولة

الصغيرة بقربها وفوقها الكتب ، فعرفت حينذاك انها هناك ... ولربما أزعجها وقوفي المفاجىء خلفها ، فرأيت من الأفضل السير بجانب الحائط حتى أتقدم وأقف أمامها وجها لوجه ·

وبينما كنت أسير على مهل لاحظت انها نائمة ، تلتف بفراء وتتكىء فوق وسادة ناعمة بيضاء ·

وتوقفت لا اراديا ·· ورحت أتأملها وكأنها لوحة فنية اذ أنه لم تتح حتى الآن رؤية ملامحها عن قرب كما أشاهدها الآن ، هذه هي المرة الاولى وهنـــا بالذات مادامت عيناها مغمضتان اتمكن من رؤية ذلك القناع المستدير والذى لم يتم تكوينه بعد ، اعني وجهها حيث الملامح الصبيانية تجمع الى أشد النساء رغبة ، شفتاه شبه مفتوحة ، تتنفس ببطء ، واقتربت على مهل وأخذتني رغبة مجنونة بأن أمرّ بيدى فوق ذراعيها أو انحني فوقها وألمس شفتيها · عندئذ تستيقظ وتجدني منتصبا أمامها اغمرها بنظراتي ، يغمرني شعور من الحنان المقرون بالشفقة ·· انه شيء رائع أن تراقب المرضى وهم فى حالة النوم ، عندما تتركهم كل حالات الخوف وينسون أمراضهم تماما لترتسم على شفاههم ابتسامات خفيفة تغط كالفراشات الجميلة فوق الزهور ·· ابتسامـــة ليست ملكا لهم اذ انهـــا تتركهم ما أن يستيقظوا من نومهم ·· وكان الذى يثيرني أكثر هو يديها المعقودتين فوق ركبتيها تمسكان بالفرو ، اليدين الناعمتين ، ولكنها تعجز أن تمسك شيئا ولو صغيرا فقلت فى نفسى وقد ازداد تأثرى ، كيف يمكننا أن نصمد فى وجه الألم وسلاحنا ضعيف هكذا ، ثم اعترانى خجل وأنا أفكر بيدى القويتين يغطيهما العضل وتنفر منهما الدماء

قاسيتين ، بامكانهما تحطيم كل شيء تروضان حصانا بضربة واحدة وتحين منى التفاته لم أقصدها الى الغطاء فوى ركبتيها الهزيلتين ·· وساقيها المشدودتين بقوة بين الآلات الحديدية والجلدية ومن جديد تهزنى هذه الآلة الكريهة ، شعور بالنقمة والاشمئزاز ، حتى هزنى من رأسى الى أخمص قدمى فاصطدمت رجلاى ببعض وأحدثت ضجة خفيفة تسربت الى أحلام الفتاة ، لم تفتح عينيها بل رأيت يديها تتحركان ببطء ، ترتعشان ، فكأن أصابعها تستيقظ متثائبة ، وترتفع بحاجبيها ، ثم تفتح عينيها تتطلع بدهشة من رؤياى واقفا أمامها ، وتلمحنى وتثبت ناظريها فوقى ورعشة خفيفة ، وهاهى تستيقظ تماما وتتعرف الى ثم تحمر وجنتاها وتتورد بلون أرجوانى مثير ·

وقالت وكأننى أخذتها على غرة وهى عارية :

ـ كم ذلك مزعجا ·

ثم تشد الغطاء فوقها ·

وقلت لها :

ـ فعلا هذا ازعاج أأسف له ·

وفجأة ابتدات أرنبة أنفها ترتعش ثم تطلعت الى بتحد وقالت :

ـ لماذا لم توقظنى فى الحال ؟ لا يليق بك أن تراقب الناس نياما ، الا تعرف كم يكون الانسان غريبا عن نفسه حين ينام ·

وحاولت الخروج من هذا المأزق فأجبت مازحا :

ـ من المستحسن أن نبدو غرباء ونحن نياما بدلا أن يرافقنا ذلك ونحن مستيقظين ·

وهاهى تقف الآن متكئة على جانبى المقعـد ، ويزداد جبينها عبوسا وشفتيها أرتجافا وهى تقول :

ــ لماذا لم تحضر أمس ؟

قالت ذلك بمنتهى السرعة ولم تمهلنى اعطاء الجواب لتضيف ايضـا ٠

ــ علينا أن نؤمن أن شيئا ما هاما حال دون مجيئك ، انما هذا لا يمنعك من أن تتصل بنا تليفونيا لتعتذر ٠

يا لى من أحمق لماذا لم افكر فى هذا السؤال من قبل وأحاول أن اجهـز الرد المناسب له وشرعت أبحث عـن رد مناسب وأخيرا قلت :

فاجأنا القائـد ألعام للتفتيش ولم أستطع الوصـول الى التليفون فمعذرة ٠

ولم تتركنى نظراتها القاسية ولا دقيقة واحدة تزداد شكوكا وبلبلة عندما أتكلم ، فكلما اعتذرت كلما كبر الجرم واستفحل لذلك وجدت أن السكوت هو الحل الأفضل وقالت أخيرا بصوت مشبع بالبرودة :

ــ آه ، وكيف أنتهت قصة المفتش المثيرة ؟

وشعرت بأن أمرى سينكشف أمامها اذ وجدتها تضرب الطاولة التى أمامها بقفازها الأبيض وكأنها تحاول أن تتخلص من احمرار وجنتها مرة ومرتين ثم تحدجنى بنظرات قاسية وتقول بشراسة :

ــ كفى الآن كذبا ورياء ، ليس هناك كلمة واحدة صحيحة مما تقول كيف تجرؤ أن تخبرنى بحماقات كهذه ؟

ورمت بقفازها فى الهواء •• ثم تناولته مرة أخرى وأخـذت تضرب به المائدة وقالت :

ـ ليس هناك أثر للحقيقة فيما قلته اذ رآك سائقنا وأنت تجلس فى المقهى وتلعب الورق مع زملائك •

أبت الكلمات أن تخرج من فمى واستمرت أديت فى هجومها •

ـ ومع ذك لماذا تراني أزعج نفسى ؟ يجب على أن ألاعبك بنفس السلاح الذى تستعمله معى ، أنك تكذب على ويجب على أن اكذب عليك أنا الأخرى ، أنا لا أخاف ان اقول لك ذلك ، ولكنى سأقص عليك الحقيقة ان سائقى لم يرك بل أنا التى أرسلته الى المدينة ليعرف أخبارك ، ظننت انك كنت مريضا أو ربما ألم بك ألم كدت أجن عندما لم تحضر وعندما لم تتصل بى تليفونيا وعندما عاد السائق وقال انك سليم معافى وليس بك أى سوء أرسلت أيلونا الى المدينة للتأكد من ذلك اننى أريد أن اسألك سؤالا لماذا تتصرف معى هكذا اننى لا أخجل أن أقول ذلك ، لماذا ؟

كنت على أهبة الاستعداد للاجابة ولكنى تراجعت فى آخـر لحظة وعندما رأت ذلك منى قالت وهى تشير بأصابعها لى :

ـ لا أرغب باختلافات جديدة الآن فمنذ الصباح وانا أسمع عبارات الاطراء والمديح الكاذبة مثل كم تحسنت خطواتك اليوم ، أنك تبدين فرحة هذا الصباح دائما كذب ورياء ونفاق دائما كلمات التخدير الزائفة من الصباح وحتى المساء ، ليس هناك من يشعر اننى اتألم من النفاق والكذب ، حتى أنت الذى أعتقدت أنك غيرهم كذبت أنت الآخر ، لماذا لم تحضر وتقول لى بكل بساطة : معذرة

لم أشأ أن أحضر البارحة ، كم كان سيكون سرورى لو اتصلت بى تليفونيا واعتذرت عن المجىء .. الا اننى ألاحظ ارتباكك عندما آخذ عكازى ثم تندفع فى الحديث لكى لا الاحظ ارتباكك ؟ ولكننى لا أعرف بعمق كل آرائك وما يدور فى خلدك اننى أعرف انك تتنفس الصعداء عندما يغلق الباب خلفى فتتخلص منى لتتركنى جثة هامدة أعلم كيف ؟ تتأوه كبرىء قد ظلم ثم ذلك القيد الذى يعتريك لكونك أضعت ساعتين من وقتك الثمين تخفف آلام مريض بائس ولكننى لا اريدك تظن نفسك مجبرا على شىء من الرأفة تجاهى اننى لا أستطيع أن أتحمل المزيد من كذبك وكل تصرفاتك .. تدمى قلبى ..

نطقت اديت الكلمة الأخيرة صارخة : محتجة ، يتطاير الشرر من عينيها وتعلو وجهها سحابة من الكآبة والشحوب ، وفجأة هدأت النوبة دفعة واحدة ، وأحنت رأسها منهوكة من المجهود الذى بذلته فى القاء محاضرتها الانسانية الرائعة واستمعت أليها أنا كتلميذ يتلقى محاضرة من أستاذ ماهر فى اختيار العبارات التى تحز فى النفس وتثير شجونها .. ودموعها ..

ونظرت الى وقالت :

ـ لقد أبديت لك وجهة نظرى فى ألمسألة كلها حتى لا أثقل عليك والآن فلنحاول أن نبدأ من جديد لا رياء ، لا نفاق ، لا كذب ، بل حقيقة لا تشوبها شائبة .

لحظت أديت تأثرى البالغ من كلامها فقالت :

ـ لماذا ترتعش ماذا حدث ؟ هل أثر فيك ما قلته ، كيف يتمكن

حديثى الثرثار من اشارتك انك فعلا لرجل غريب .

وسمعنا وراءنا صوت المصعد ثم صوت الباب يفتح ويخرج منه والدها ، ويتقدم منا ويحييني وتجاذبنا أطراف الحديث .. ثم قال الرجل لابنته :

ـ أخاف أن يكون البرد شديدا عليك ، هل تريدين أن ننزل ؟

أجابت أديت :

ـ أجل يا والدى .

ونزلنا وعادت أديت الى غرفتها ودخلت أنا ووالدها الى المكتبة وقال الرجل :

ـ تفضـــل بالجلوس :

فشكرته وجلست وأنا أحاول أن اخمن الحديث الذى ســوف نتناوله انا وهذا الرجل انه مليونير وأنا بالنسبة اليه فقير ، تراه ماذا يريد منى هو الآخر وأخذ يتجاذب معى فى مواضيع عامة ثــم قال :

أود أن اشكرك ، انك تدخل السعادة على أديت ، انك لا تعرف قسوة أن ترى ابنتك الوحيدة وهى تزحف بقفص حديدى يلف ساقيها لقد سألت عشرات الأطباء وجميعهم يؤكدون لى انها ستشفى ولكنى أعلم انهم يخدعوننى ولكن واحدا منهم اسمه دكتور كوندور انــه أحسن الأطباء الذين عرفتهم انه طموح ولا يعترف بالفشل ولذلك فانه هو الذى يداوم على علاج ابنتى ، ومهما فعلت له فلن أفيه حقه نظير ما يبذله من مجهود لقد كتبت له نصيبا من مالى فى وصيتى لكى يبنى بها مستشفى ، اننى أحس انه اذا كتب لأديت الشفاء فستكون

على يدى هذا الرجل وما أريده منك هو انني أشعر فى كثير من الاحيان انه لا يقول لى الحقيقة كل الحقيقة انه يعدنى دائما ويخفف عنى . ان الفتاة فى تحسن مستمر وانها سوف تشفى تماما وكلما أطلب منه تحديد الوقت يقول لم يمر الوقت الكافى بعد . اننى رجل كهل ويجب أن أعرف هل سأعيش حتى ارى ابنتى ، أم اننى ، اننى .

وانهار باكيا وأشاح بوجهه خارجا عن نطاق رؤيتى حتى لا أرى دموعه ثم تنفس بعمق واستعاد نشاطه وأكمل حديثه قائلا :

ـــ سامحنى ، لم أشأ أن أتحدث عن ذلك ، ماذا أريد بالضبط ؟ أجل ان الدكتور كوندور سيصل غدا من فيينا وأريدك أن تقابله وتسأله حقيقة الامر ، تلك هى الخدمة التى أطلبها منك وأنى أشكر لك حسن استماعك لى واقدر مشاعرك .

وصافحنى بحرارة وانصرفت .

وصلت صباح اليـــوم التالى الى القصر واستقبلتنى أيلونا بمفردها وقالت لى أن الدكتور وصل من فيينا وانه الآن يقوم باجراء الكشف على اديت ومعها والدها .. وانفردت بأيلونا ســاعتين ونحن نتناول أطراف الحديث حتى خـــرج علينا الدكتور ومعـــه كيكسفالفا ، وأخذت فى تفحص الطبيب العبقرى الذى وصفه لى ولم أجد فيه صفة واحدة تؤهله بأن يكون ذلك الطبيب الماهر ، شاهدت رجلا مربوع القامة ، أصلع ، يضع فوق عينيه نظارة سميكة ، ويرتدى سترة سوداء مهدلة ..

قام الوالد بعملية التعارف وصافحنى ثم ذهبنا الى الطعام وجلس الدكتور الى المائدة دون استئذان مما يدل على أنه متعود على

تناول الطعام فى هذا المنزل وابتدأ فى تناول حسائه بشهية واضحة ، وبعد أن فرغنا من الطعام عدنا الى الصالون حيث تنتظرنا القهوة ، وارتمى فوق الكنبة المريحة المعدة خصيصا لأديث واشعل سيجاره ونظر الى الرجل وقال :

ــ حسنا هناك تحسن ملموس منذ الزيارة الأخيرة وهذا مما يسرنا انما الذى لاحظته هو حالتها النفسية لقد بدأت تتغير نوعا ما .

وارتعش الوالد وسأل :

ــ تغيرت ؟ ماذا تعنى بذلك ؟

ــ حسنا .. تبدلت .. هناك شيئا ما لا يسير حسنا .

واستمر الكهل يقول :

ــ ما هو الذى لا يسير بانتظام يا دكتور ؟

ــ هناك شيئا ما لا أعرفه .. لم أتوصل اليه الى الآن .. انها كانت تقول لى مثلا وانا اقوم بفحصها : عبثا تحاول .. انه نفس الشىء .. انها كانت فيما مضى تنتظر أن أقول ملاحظاتى .. أما هذه المرة فقد كانت تبدى نوعا من عدم الاهتمام .. أو فلنقل نوعا من اليأس .. انها تقاوم العلاج .

ان هذه المقاومة لا تسرنى على الاطلاق ، اننى أعترف أن الفتاة مرهقة ، غاضبة ، أكثر من أى وقت مضى ، ولكن ثورة كهذه تعنى هى الأخرى تمسكا بالحياة وقوة الارادة الشخصية ، قوة فى امل الشفاء والتخلص من المرض .. صدقنى اننا لا نحب كما يظن الناس المرضى المطيعين ، ان هؤلاء يؤخرون سير اعمال الطبيب ولا يساعدونه على شفائهم ، اننا كأطباء نفضل أن نراهم يبدون مقاومة لان فى ذلك

قوة فعالية أكثر مما فى الأدوية التى نصفها لهم ، واقــول لك مــرة اخرى اننى لم أقلق لهذا فاذا أردنا ان نجرب طريقة ثانية معهــا او نصف لها علاجا آخر لوجدناها تبــدى جهدا غــريبا •• ومن يدرى فقد يكون لنا فرصة فى ذلك كى ندخل الحــالات النفســـية معنا ، ولا ادرى فعلا اذا كنت تفهم ما اقوله •

قال الرجل بشبه رنة حزن :

ـ تماما ••

نظرت الى الكهل فوجدته ما زال لم يخرج عن صــمته •• كان يتطلع أمامه، شارد الذهن شعرت أنه لم يفهم ما كان بقصده الدكتورد ولعله لم يكن يريد أن يفهم ، ان ما كان يستحوذ على اهتمامه هو : هل ستشفى ابنته ؟ وهل هذا قريب أم لا ؟

واستمر الدكتور فى كلامه قائلا :

ـ والآن كفانا قلت اليوم •• لقد أخبرتك ما اعتقدته أما الباقى فلا يتعدى كونه ثرثرة د حتى أذا حــدث وبدت ان أديت مســتاءة أكثر مما هى عليه الآن فاياك التخوف سأصل الى معرفة ذلك الشيء الذى لايسير حسنا ، وما عليك الا ان تمسك اعصابك وتبقى هــادئا ويجب عليها أن تشعر بالاطمئنان والأمل فى وجهك والا خسرنا كل شيء ، والآن اسمح لى أن ابقى فترة أخرى حتى ادخن ســيجارتى وانصرف •

ـ هل تنوى حقا ان تنصرف ؟

وبقى الدكتور صامتا ثم قال :

ـ اجل يا عزيزى ، هذا يكفى اليوم ، لدى مريض آخر سأذهب

لزيارته هذا المساء ، اذن ان حالته خطيرة ، وكما ترانى لم أهدأ منـذ السابعة صباحا اذ كنت طيلة اليوم فى المستشفى ، كما اننى لا أريد أن اقطع خلوتك مع ضيفك ثم أشار الى وهو يبتسم •

ولكننى تذكرت انا الآخر أن اليوم هو موعد خدمتى الأسبوعية فاعتذرت من عدم الاستمرار فى السهرة وقلت للطبيب :

ــ سوف نذهب سويا اذا سمحت لى •

ولمع بريق الأمل فى وجه الاب الباهت، لقد تذكرت الحديث الذى دار بيننا اليوم والمهمة التى أوكلنى بها •

وقال : أذن فى هذه الحالة أذهب الى فراشى حالا •

وخرجت أنا وهو ووصلنا الى البوابة الخارجية للقصر دون ان نتجاذب أطراف الحديث ثم قال الطبيب وهو يلتفت الى جيدا :

ــ مسكين والدها • اننى أوبخ نفسى دائما على تصرفاتى معه واتساءل اذا لم يكن البعض منها مزعجا كثيرا كى يسىء اليه ويحرجه، لقد كنت اعلم أنه يود ان يستبقينى اليوم ليطرح على للمــرة الألف السؤال الذى يحيره ، نفس السؤال منذ بدأت علاج ابنتــه ولكننى لا أستطيع اذ أن نهارى كان حافلا بالمتاعب •

كنا نجتاز الممر الخارجى المحاط بالأشجار الباسـقة وأضــاف الدكتور :

ــ ثم أن هناك وقتا لا أستطيع أن اتحمل فيه الحاح احد من الناس ان كل المرضى يريدون ان يعرفوا الحقيقـــة من فم طبيبهم ، ولكن ذل هذا ليس مهما بقدر أهاليهم الذين يخيبون حياتنا الى جحيم بسبب تكرار أسئلتهم • اننى لا اريد ان اصف بهذا الاب يمثل هذه

الصفة ولكن عندما يصبح ذلك روتينيا ، فانك تجد نفسك تفقد صبرك تلقائيا ٠

اننى قلق بشأن صحته هو ، اكثر مما تصوره لك نفسك ، ويسعدنى أنه لا يعرف الى أى مدى تدهورت صحته ٠

ارتجفت عند سماع ذلك اذ ان الحالة ليست على ما يرام وبطريقة بدائية للغاية استطاع الطبيب ان يمدنى بمعلومات كافية عن خطورة الأب وكان تأثيرى بالغا فاضطررته أن يكمل شرحه وقلت له :

ـ عفوا يا دكتور ٠ انك تدرك أن هذا يقلقنى جدا ، ثم اننى لم أشك فى ان حالة الآنسة أديت سيئة جدا ٠

الآنسة أديت ؟

وتطلع الى الطبيب مندهشا ٠٠ ثم تنبه الى أنه كان يتكلم عن شخص آخر وقال :

ـ كيف ذلك ؟ الآنسة أديت ؟ اننى لم أتكلم كلمة واحدة بشأنها ٠ انك لم تفهمنى مطلقا ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ ان حالة الآنسة اديت مستقرة تماما ، لاتتقدم أبدا ويا للأسف انها حالته هو أننى اعنى الأب الذى يعذبنى أكثر الم تلاحظ كيف تغير طيلة هذه الاشهر الاخيرة ٠ وكم اصبح مزاجه صعبا ؟

ـ لا أستطيع أن احكم على ذلك فأنا لم اتشرف بمعرفته الا منذ عدة سابيع قليلة فقط ٠

ـ آه عفوا ، اذا كنت كذلك فأنا أعرفه منذ سنوات خلت ، لقد تخوفت اليوم وانا اتطلع الى عينيه ويديه ٠٠ ألم تر كيف هى هزيلة ضعيفة ٠ ثم ان انفعاله مبالغ فيه الى درجة كبيرة ، انها ليست اديث .

التى تسبب لى الوسواس ، بل هو والدها نفسه ولذلـــك اخـــاف ألا يعمر طويلا ٠ .

أعترانى ذهول شديد بعد ما سمعته ، لم افكر بهذا مطلقا ٠ لم ار الى الآن أو حتى أشهد موت شخص قريب الى ، ومن الصعب ان تحضرنى فكرة الموت فى الحال ، لشخص كنت معه البارحة وتحدثنا فى أمور كثيرة أن يموت فى الغد ويوارى التراب ولذلك احسست بوخزة مؤلمة فى قلبى ، كنت اريد أن اقول شيئا :

ــ ولكن هذا مخيف جدا ، أنه حقا مخيف ، رجل مثله أنيق ، طيب القلب متسامح ، اذ انه فعلا كان أول رجل عرفته ووجدت فيه كل تلك الصفات مجتمعة ٠

وحدث شئ مفاجئ ٠٠ اذ توقف الدكتور كوندور ٠ رتطلع الى محدقا ثم سألنى مضطربا :

ــ رجل لطيف ؟ ولطيف حقا ، كيكسلفالفا نفســه ، أعــذرنى ياسيدى ألكولونيل ولكن هل تتكلم بجدية ؟ ٠

وغاب عن بالى فحوى سؤاله وظننت أننى ارتكبت حمـــاقة فقط ٠٠ لذلك اجبت متلكئا :

ــ لا أستطيع ان أكلمك الا بعد أن احكم ، اذ ان الرجل بدأ لى فى كل المناسبات مسامحا وممتازا ، كما انه فى المعسكر الذى نقيم فيه لم نتعرف على شخص فيه كل تلك الصفات مجتمعة ٠

امتنعت عن الكلام اذ كان الطبيب يتفحصنى بدقة متناهية ، كان وجهه المستدير يلمع تحت ضوء القمر الســاطع ٠٠ ولم أكن أرى من وراء نظارته سوى تلك النظرات الثاقبة المتفحصـــة ثم أخفض رأسه وتابع مسيرته وقال كأنما يحدث نفسه :

ـ انك حقا ، رجل غريب ، أعذرنى اننى لا أعنى بذلك شيئا لكنه شيء غريب كان من المفروض ان تعلم شيئا ولو يسيرا عن الرجل .

ووجدتنى أجبت بحدة :

ـ لا ، اننى لم أتكلم مطلقا مع اصدقائى عن كيكسفالفا مطلقا .

وقال الطبيب :

اذا كنت تريد أن تعرف عنه الكثير فانا رهن اشارتك .

ـ طبعا هذا ما أريده .

وأخرج ساعته من جيبه وتطلع اليها وقال :

ـ انها الآن الحادية عشرة الا ربعا ، أمامنا ساعتين اذ ان قطارى لا يترك المحطة قبل الواحدة والعشرين دقيقة ،ولكننى لا اعتقد ان مثل هذه الأشياء تقال فى الطريق ، ربما تعرف مكانا هادئا يمكننا الجلوس فيه والتكلم بصراحة .

فكرت قليلا وقلت :

ـ بامكاننا الذهاب الى كازينو تيرولين هناك يمكننا أن نتحدث دون أن يزعجنا أحد .

ـ تماما .. اظن ان هناك الكثير الذى سأقوله لك .

ورحنا نسرع الخطى وآلاف الأسئلة تجول بخاطرى عن الابن الحزين ..

الفصل الرابع

كان الكازينو الذى قصدناه يتمتع بتلك الشهرة الفائقة نظـرا لصغر حجم البلدة ولكننى كنت اعتبره من ناحيتى سوف يؤدى الى الغرض الذى من أجله جلسنا للتناقش ٠

وانتحينا فى زاوية هادئة بعيدين عن الضوضـاء المنبعثـة من بعض رواد المقهى وأخذنا نتناول شرابنا الذى طلبـه الدكتـور كوندور وملأ كأسه ولا حظت من حركات وتصرفاته أنه سوف يتكلم معى ولكنه سوف يحجب بعض الاشياء فى حياة كيكسغالفا ولذا فانه يهىء نفسه لمحاولة المداراة وأحسسـت أنه يعـانى من شىء ما ٠٠ وبعد أن شرب كأسه قال :

ــ من الأفضل أن نبدأ من البداية ٠٠ ولا تظن أن ذلك الرجل قد ظهر فى بداية الأمر ، لا يا عزيزى لم يكن قد ظهر بعـد ذلـك الارستقراطى الذى يرتدى النظارات والاسموكنج صـاحب كل تلـك الاموال ٠٠ كما أننى لا أستطيع أن اطلق عليه اسـماء الشرف التى تطلق عليه الآن ٠٠ وانما كان هناك رجل يعيش فى كـوخ ضـيق ، متقد النظرات طمـوحها يدعى ليبـولد كانيتز اطلـق عليه الناس اسم لاميل كنيتز ٠

وكدت أعبر عن دهشتى من هذا الكلام وقمت واقفـا محـاولا أن أعترض على تلك اللهجة التى يتكلم بها صديق عن صديقه ، ولكن الدكتور كوندوز ظل هادئا وقال لى وهو يبتسم ٠

ـــ دعنى أستمر الى النهاية وبعدها تستطيع أن تقول رأيك ٠
وسكت على مضض وتابع كوندور حديثه هادئا وقال :

ـــ أجل كانيتز ٠ ومر الوقت على فقره وتبرمه من حيـــاته وساعده القدر بتدخل أحد من الوزراء المقربين فى البلاط واصبح كيكسفالفا الذى يعرفه أنا وأنت ٠ لقد تغير المكان وتبدلت الأسماء واصبح الشريف لقد كلفه ذلك كثيرا ولكن على كل حال لقد وصل الى ما يريد ٠

ولو عادت بى الذاكرة الى والد السيد كيكسفالفا كانيتز سابقا لوجدته رجلا غير شريف ٠٠ كان صاحب كوخ عند الحدود توقف عنده كل يوم العربات التى تقل الحدادين والتجارين المسافرين ويتناولون المشروبات الرخيصة والوجبات الرديئة وكم من المرات اتى سكروا فيها ثم قاموا بتحطيم كل ما وقع فى طريقهم من اثاثات وأوان ٠ وفى أحد هذه المعارك اصيب والدكانيتز ولقى مصرعه وآلت بالتالى التركة القذرة الى السيد كيكسفالفا ٠٠ ولكن الحال لم يتغير فى عهـــده عن عهد والده وظلت المحارك تدور ولكنه كان يحاول دائما أن يقف موقف المصلح الاجتماعى فى هؤلاء لكى يحافظ على أساسه المتهالك ٠٠ كان يقف فيما بينهم يحاول تهدئتهم ووضع حد لنقاشهم وصراخهم وفى أحد المرات دفعه أحد الحمالين دفعة قوية ألقت به الى احد الأركان وهو ينزف دما ، وعرف أن ذلك المكان لن يورثه الا الموت كمـــا لقى والده حتفه ٠ فقرر الابتعاد عنه والسعى الى عمل آخر ، وكان له ما اراد ، اذ أنه فى السن الذى كان فيه الأطفال يلعبون ويلهون كان هو مشغولا بعمليات أكبر فى فن البيع والشراء ٠٠ كان يعرف سعر كل شىء ومن اين يمكنه شراؤه ، يعرف كيف يساوم فى الاســعار ، وكم يجب أن يربح ، كى لا تنصرف عنه الزبائن ، وبالاضافة الى

ذلك ·· كان يجد وقتا ليتعلم ·· اذ كان كاهن القرية يعلمه القراءة والكتابة ·· كان يحفظ دروسه ويعيها جيدا اذ أنه ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره ·· بدأ فى العمل مساعداً لاحد المحامين ·· ثم اخذ بالاتصال ببائعى الحلوى يعد لهم ميزانياتهم ويملأ لهم التقارير الخاصة بالضرائب ·

لم تكن تتوافر لديه الكتب والمجلات ·· وحتى الصحف اليومية لذلك كان يمزق الصحف التى على الحائط فى المحطة ويقوم بجمعها بعد ذلك وقراءتها ·

وقال الدكتور :

ـــ لا أعرف كيف أتى الى هنا ، ولكنه عندما ظهر فى هذه المنطقة كان مديرا لاحدى شركات التأمين الكبرى يهتم الى جانب عمله الرسمى بمئات الامور الاخرى ·· كان يعرف كل شىء ويتعامل بكل شىء وتغاضوا عنه فى البداية ·· ثم راحوا ينبهونه الى الاهمال فى عمله · كان اذا ما عرف ان سيدة ماتود تزويج ابنتها تدخـــل فى الأمر بجدية ·· او أن رجلا يرغب فى السفر الى أمريكا يهب لتقديم المساعدة وتقديم مما يلزم من أوراق ومعلومات · يشترى الثيـــاب والساعات ·· يبحث عن الادوات الاثرية ويقتنيها ، يرهن العقارات أو يبيعها ·· وهكذا توسعت من سنة الى سنة دائـــرة معارفه وأعماله ·

· يمكننا جنى الارباح الطائلة اذا كانت لنا موهبة وقوة كالتى اعتمرت فى نفس كيكسفالفا وهو لايزال شابا ·

ان الثروة الحقيقية لا تتحقق الا بعلاقة خاصة بين المصروفات والعائدات ، بين الداخل والخارج ، ولعل فى ذلك يكمن السر وراء

نجاح صديقنا كانيتز ، لم يكن يصرف شيئا طيلة هذه السنوات ،
ماعدا اعالة بعض أقاربه ودفع رسوم تعليم أخيه •

كان غنيا • حتى قبل أن يصبح مسئولا كبيرا فى شركة التأمين
هنـــا •

أن يكون الرجل ذكيا •• مجتهدا ومقتصدا •• ثم يثرى آجلا
او عاجلا لا نظن أن ذلك يحتاج الى اعتبارات فلسفية خاصة كما
اننا لانلاحظ فيه شيئا من الروعة فنحن الأطباء نعلم فى أغلب الاحيان
ان ادخارا فى البنك لا يساعد مريضا بشىء ، ولعل ما استرعى انتباهى
منذ أن عرفته • هى تلك الرغبة بزكادة ثروته ومعارفه فى آن واحد ••

يقرأ دائما مسافرا كان أم لا ، فى الليل ، فى النهار لا فرق •
هكذا درس الدستور درس الحقـــوق التجـــارية كما درس التشريع
الصناعى •• وأصبح محامى نفسه بنفسه •• يتتبع المبيعات فى
لندن وباريس ، وكأنه بائع تحف •• كان على علم بالاسهم كأحـــد
رجال البورصة والبنوك ، يعهد الليلة احيانا كثيرة بتموين ثكنــــات
الجيش بالسلاح والاطعمة وهكذا استمر مناضلا حتى أصبحنا نعرفه
اليوم بكيكسفالفا الثرى •

وقطع الدكتور كوندور حديثه ، وصمت برهة ثم عاد يقول :

ـــ أن ما حدثتك به الآن عرفته من غيره ، أما ما سوف أقصه
عليك الآن حدثنى به هو نفسه قص على ذلك الكلام وأنا بجانب
سرير زوجته بعد أن أجريت لها عملية جراخية مستعجلة أثنــــاء
الليل • كنت واثقا من صدقه فى كل كلمة قالها ، لأنه لا يمكن لرجـــل
أن يكذب فى ساعات رهيبة مثل الوقت الذى كنا فيه •

وجرع الدكتور جرعة من كأسه على مهل ثم أشعل سيجارة

ثانيا واخذ ينظر الى بتمعن ثم استأنف كلامه .

ــ أن تاريخ الاحداث من الوقت الذى تطعه ليبولد أو كانيتز حتى أصبح كيكسلشافا ابتدات برحلة قطار بين بودابست وفيينا ، كان فى الثانية والأربعين من عمره يمضى أوقاته فى قطارات السكك الحديدية ، ولم يحدث له ان اشترى تذكرة الا فى الدرجة الثالثة كان معتادا أن ينام حيثما كان ، اذ أنه عرف الشقاء منذ الصغر وعرف انه ليس من الضرورى عندما يشتد سلطان النوم ويقوى أن نبحث عن سرير لنستلقى عليه .

ولكن صديقنا لم يكن نائما هذه المرة اذ كان معه فى نفس عربة القطار ثلاثة من رجال الاعمال يتحدثون ويتبادلون الآراء وكان يسمع ما يدور لانه فى مثل هذه المسائل يصبح متقد الذهن ، لقد خف تعطشه الى الثروة على مر السنين ، كما خف تعطشه الى المعرفة أيضا .

عبارة واحدة هى التى أيقظته تماما وجعلته يصيخ السمع ، كان أحد الرجال الثلاثة يقول لرفاقه :

ــ أريدكم أن تتذكروا كيف تسنى لهذا السكير أن يربح دفعة واحدة مبلغ ستين ألف كورونا واستيقظ وكأن دلوا من ماء بارد قد صب فوق رأسه وراح يسأل نفسه :

ــ من الذى ربح كل هذا المبلغ ؟ وكيف ؟ عليه أن يعرف حالا ولكن لابد أن يطمئن المتحدثين الا أنه لا يسمعهم .. ولذا فانه أغرق قبعته فى رأسه حتى حجبت عينيه ومن ثم يظنون انه نائم لا يلقى بالا الى حديثهم وفى نفس الوقت فانه أنصت حتى لا تفوته كلمة واحدة من الحوار الذى يدور بينهم .

ثم أخذ المتحدث يقص على زملائه قصة المبلغ الضخم هــذا

وكيف أن معلمه وهو محام شهير تأخر عن الوصول الى بودابست من أجل قضية تافهة لاتدر عليه أكثر من خمسين كورونا ٠٠كانت القضية الكبرى التى سيترافع فيها تدور من حول ورثة ، كانت المستندات المطلوبة كلها بحوزته وكان متأكدا من كسب القضية ٠٠ وحدث أن زار الخصم موكل معلمى واقنعه بالمصالحة واذا بالأخير يوقع على عقد يتنازل فيه عن مبلغ نصف مليون كورونا ٠

والآن انتبه يا سيدى الكولونيل ، قال لى كوندور متطلعا الى :

ــ ان كانيتز بقى قابعا فى مكانه لا يبدى حراكا ، ولكنه لا يترك كلمة تمر من أمامه دون أن يعى كل حرف فيها ٠٠ واستطاع أن يلتقط اسم أوروسفار الذى يتحدثون عنه والذى كان يملأ صفحات الجرائد يوميا فى تلك الآونة ، وها أنا أقص عليك ملخصا لتلك القضية التى شغلت الرأى العام مدة طويلة ٠

كانت الاميرة أورزفار من مواليد أوكرانيا تملك ثروة ضخمة وعاشت خمسة وثلاثين عاما بعد أن توفى زوجها ٠٠ واصبحت قاسية متوحشة منذ أن فقدت والديها وولديها وكرهت كل ما يتعلق بعائلة زوجها من أخوته الذين كانوا يتطلعون الى وفاتها بفارغ صبر حتى يستولوا على التركة التى تستحوذ عليها وكانت هى ترفض أن تستقبل أحدا منهم اذا ما أتى الى زيارتها كما كانت ترمى برسائلهم التى يرسلونها اليها ولا تأخذ علما بما فيها ٠٠ كانت تبدو متغطرسة ٠٠ مرتبكة حائرة منذ أن أصبحت تعيش بمفردها وكانت تعيش حياتها فى ترف فى الاسفار والرحلات متنقلة بين نيس ومونتروى ٠٠ تقرأ الروايات الفرنسية ٠٠ تساوم وتجادل كأمهر التجار وكان من الواضح أيضا أن يقاسى الشخص الوحيد الذى يرافقها متاعب جمة ٠٠ اذ أن المحتم على تلك الفتاة اللطيفة المرافقة

أن تعتنى بها فتهيء لها الطعام وتقلم أظافرها .. وعليها أيضا أن تتحمل سيل شتائمها الذى ينهمر عليها دون أى سبب الا اذا كان ذلك ما تريده سيدتها .. ناهيك عن الضرب المبرح الذى كانت تكيله لها اذا ما تأخرت فى الاستجابة عن أى طلب منها .

وأصيبت الاميرة أوروزفار وهى فى عامها الثامن والسبعين بمرض خطير وظن أهلها أن الساعة قد حانت ولكن خاب ظنهم اذ عاد ذلك التنين وشفى ، وما ان سمعوا ذلك حتى انصرفوا عنها وعادت الى سيرتها الاولى فى الانتقام منهم .

وعندما علمت الاميرة أنهم كانوا ينتظرون موتها اشتعلت نار الحقد وتجددت خاصة عندما أخبرها الخدم أنهم سمعوهم وهم يتحدثون عن مقدار التركة التى ستتركها لهم ولمن ستكون الجواهر والحلى ... ؟ وكذلك ممتلكات أوكرانيا والقصور ؟

وكانت الضربة الاولى .. اذ تسلمت بعد مرور شهر على ذلك رسالة من أحد بنوك بودابست يؤكد لها أنه سيعمد الى مطالبة ابن اخيها بما عليه من أموال لدى البنك اذا لم تؤكد له ان اسمه سيرد فى وصيتها .

واعتبرت ذلك من جانبها من قبيل الوقاحة ولذلك عمدت فى الحال الى محاميها وأخذت فى املاء وصية جديدة بحضور طبيبها الذى وقع انها تتمتع بصحة جيدة وبكامل قواها العقلية وهى تقدم على ذلك .. واخذ المحامى الوصية معه وتركها تنـام فى أحضـان أدراج مكتبه مدة تزيد على ست سنوات اذ ان الأميرة لم تكن على عجلة من يوم موتها وكانت المفاجأة يوم فتح تلك الوصية اذ ان الأميرة لم تكن قد عينت وارثا وحيدا لممتلكاتها .. مرافقتها الخاصة .. الآنسة ديتزونوف .. إسم لم يسمع به اقاربهم من

قبل ٠٠ اليها يعود كل شيء ٠٠ معمل السكر ٠٠ الخيول ٠٠ ممتلكات كيكسـلفا ٠٠ كما أنها تبرعت بمعظم اموالها الى القرية التى نشأت فيها ، لم تترك لهم شيئا واذا سألت عن سبب ذلك قالت لهم : انهم كانوا ينتظرون موتى بفارغ الصبر ٠

كانت مهزلة جميلة بالنسبة اليها ، وصدمة أليمة بالنسبة اليهم ٠٠ وأخذوا يستنجدون بالمحامين ويعترضون على حق التصرف وتذرعوا بأن الوصية لا تتمتع بأى صفة قانونية ٠٠ اذ أنها صيغت يوم كانت الأميرة تعانى آلاما مبرحة وكانت تخضع لعناية مرافقتها ٠٠ اذ انها بالتأكيد عمدت الى تلك الحيلة وأجبرتها على أن تجعلها تكتب لها كل شيء وفعلوا أكثر من ذلك اذ حاولوا أن يعطوا هـذا التصرف نوعا من انتهاك حرمة الوطن ٠٠ أرادوا أن يستغلوا ماحدث سياسيا اذ انه لا يمكن أن تؤول ارض اوزوزغار الى اناس غرباء ٠٠ روسيين مثلا ٠٠ أو الى الكنيسة الأرثوذكسية وشغلت هذه الحادثة الرأى العام طويلا كما استغلتها الصحافة أيضا ٠

ولم تفلح هذه المحاولات ولم تنجح احـداها ٠٠ وصـارت ديتزنوف المالكة الجديدة ٠٠ ومن المؤكد ايضـا ان كانيتز قـرأ كل ما ورد فى ملف القضية ٠٠ مع انـه لم يترك كلمة مما سمعها من المسافرين الثلاثة ، أضف الى ذلك أنه يعرف كل أراضى كيكسلفافا يوم كان معتمدا لدى شركة التامين ٠

واستطرد الرجل يكمل حديثه :

ــ والآن ٠٠ الآنسة ديتزونوف سوف تبيع معمل السكر لأن الموردين يسعون لاغتصابه ٠٠ وسيحضر بعد غد المدير العام من بودابست بخصوص هذه المسألة أما فيما يتعلق بالسكن فسـيؤجر

الى شخص يدعى بتروفيك من أصدقاء الأميرة السابقين وأعتقد ان المحتكرين أنفسهم هم الذين سيشرفون على ادارته .

ولم يعد لدى كانيتز حاجة لان يسمع أكثر مما يسمعه ، ففى ذلك كفاية . قليلون هم الذين يعرفون كيكسلفافا معرفة تامة ، لقد أشرف على ادارته طيلة عشرين عاما كما أنـه يعرف بتروفيك تماما .

وتذكر الخزانـة الممتلئة التى تحتـوى على الاوانى الخزفية النادرة .. وشالات الحرير المطرزة التى أحضرها جد الأميرة من الصين ، وتمنى لـو كانت كل تلك الأشـياء مازالت فى الخزانـة الحديدية فى ذلك القصر هناك وجاءته رعشة من جـراء تذكر تلك الأشياء وقال فى نفسه لعله من الممكن الحصول عليها .

وتظاهر كانيتز وكأنه استيقظ فجأة واستعد للنزول اذ كان القطار على وشك الوصول الى المحطة القريبة من كيكسلفافا ، ونزل وتوجه الى أحد الفنادق وبات ليلته واستيقظ فى السابعة وسـار الى القصر الذى يعرف طريقه تماما .. يجب عليه ألا يضيع الوقت ويكون أول من يصل الى هناك ويصفى تلك القضية قبل أن يصل المحتكرين من بودابسـت وان يتفـق بتروفيك على ثمن البيـع المقدم ويحصل على عمولته ..

ووصل الى القصر ولكنه لم يشاهد أحدا من الخدم .. يبدو أن المالكة الجديدة لا تحتفظ بكثير منهم كالأميرة السابقة ، وهكذا اتيحت لكانيتز فرصـة ان يفحص المكان دون أن تزعجه أحـد من الخدم .. ولاحظ أن المبانى لا تزال تحتفظ بجمالها ، ولكنه وجـد المدخل العام مقفلا .. وأخذ كانيتز يتنقل من باب الى آخر ويقرعه

دون أن يجيبه أحد ، وأخيرا استطاع التسلل من باب جانبى واذا به يشاهد امرأة تنسق بعضا من الزهور ٠٠ اخـيرا عثـر على من يستطيع أن يرشده وقرع الزجاج الذى يفصله عنهـا واستدارت المرأة مرعوبة اذ انها كانت فيما يبدو غير متوقعة أن يفاجئها أحد ٠

وتطلعت اليه وبقيت مدة هكذا ٠٠ قبل أن تتقدم من الباب ببرود وخجل وتفتحه للزائر الجديـد ، كانت المرأة شقراء ناعمة ، شابة ٠٠ ونظرت اليه وقال لها :

ــ أهكذا تتركين الناس ينتظرون ؟ أين بتروفيك ؟

ــ أرجوك عفوا ٠٠ لم أفهم ما قلت ٠

ردت عليه المـرأة بارتباك ٠٠ ثم أخـذت فى التراجع واخفاء المقص الذى تحمله فى يدها ٠٠

ورددت أنا مستمرا فى هجومى عليها :

ــ كم بتروفيك هنا اذن اننى أطلب المسئول ٠

ــ آه المسئول لم أره بعد ربما يكون قد ذهب الى ذيبنا وقد قالت امرأته انه من المحتمل أن يعود هذا المساء بالتأكيد ٠

ــ من المحتمل ٠٠ قالها كانيتز وردها فى صـمت اذن عليه أن ينتظر ليلة أخرى دون أن يعرف ٠٠ هل سيؤدى ذلك الى فائدة أم لا ؟ هل يجب أن يغيب هذا الرجل اليوم ٠٠

وعاد يلتفت الى المرأة وهو يقول لها :

ــ هل يمكننى أن أزور القصر خلال تلك الفترة ٠

وارتعشت المرأة عند سماعها هذا الكـلام ٠٠ ولاحـظ كانيتز ارتعاشها فقال :

هل معك المفاتيح لالقاء مجرد نظرة ؟

ــ المفاتيح ٠٠ أجل انها فى عهدتى ولكنى لا اعــرف متى ٠٠

ــ اقولك بأننى لا اود بتروفيك من اجل ٠٠ هيا لا تضــيعى الوقت هل تعرفين البيت ؟

وبدت المرأة أكثر ارتيابا وقالت :

ــ أظن نوعا ما ٠٠

وقال كانيتز فى صمت : انها لحمقاء ويالها من انسان غريب يستعمله بتروفيك ، ثم أمرها بصوت عال :

هيا لندخل أذن ليس لدى وقت أضيعه ؟

دخل أمامها وتبعته خائفة ثم وقفت مترددة عند المدخل ٠

ــ وتساءل غاضبا :

ــ لماذا هذا التردد ؟

وبينما كانت تأخذ المفاتيح من كيس جلدى عتيق معلق معهــا كان هو يسألها على سبيل الاحاطة والحنكة :

ــ ماذا تفعلين فى هذا المنزل يا سيدتى ؟

توقفت المرأة وقد توردت وجنتاها وقالت :

ــ أنا ٠٠ ؟ لقد كنت المرافقة الوحيدة للأميرة ٠

وشعر كانيز ان انفاسه قد خمدت ، وكأن كلام محدثته قــد أصابه بنوع من الصدمة الكهربائية وتراجع الى الوراء وقال :

أأنت الآنسة ديتزنوف ؟

قالت وهى ترتعد وكأنه اصابها هو الاخر :

ـــ اجل ٠

كان كانيتز لم يكن يعرف الى هذه اللحظة ما يسمى بالانفعال ولكنه شعر وهو يقف امام وريثة الاميرة وجها لوجه انه امام هــذا الاكتشاف الجديد فتغيرت لهجته الهجومية وقال معتذرا :

ـــ عفوا ٠٠ ورفع قبعته وقال :

ـــ لم يسبق ان تعرفت ٠٠ أقصد لم أكن ، انني ٠٠ اعتذر ٠
وتوقف عن الكلام وكأنه لا يستطيع التعبير ٠

كان عليه أن يتدبر الموقف وان يتكلم بلطف يزيل من نفس تلك السيدة ما قد يكون قد علق فيها من شكوك وعاد يكمل :

ـــ لم آت ألا لامور تتعلق بالتأمين٠٠سبق لى أن أتيت الى هنا مرات كثيرة فى السنوات الماضية ٠٠ يوم أن كانت الاميرة على قيــد الحياة ولسوء الحظ لم أتشرف يا آنسة يومذاك بلقياك ٠٠ أريد الآن ان اعرف وارى اذا كان كل ما أؤمن عليه لازال قائما فى مكانه ٠٠ اننا مجبرون على ذلك ٠٠ رغم أنه ليس هناك من ضرورة او الحاح
وقالت المرأة خائفة :

ـــ أرجوك ٠٠ وبما أننى لا اعرف شيئا عن تلك الاشياء فمن الافضل أن ننتظر عودة السيد بتروفيك ٠٠ أليس كذلك ؟

واجاب كانيتز بسرعة : بالتأكيد ٠٠ بالتأكيد ٠٠ ولكن النظرة التى سوف ألقيها لن تأخذ ألكثير من وقتك اذا لم يزعجك ذلك ٠٠ أما من حيث الباقى فلا اظن انه قد حدث اى تغيير يذكر ٠

وأجاب باستعجال :

لا ٠٠ لا ٠٠ لم يتغير شىء ولعلك تتحقق من ذلك بنفسك ٠

فرد كانيتز منحنيا : انك لطيفة يا آنستى ٠

ثم دخل الاثنان الى القصر ٠

وعندما وصـل الصالون ٠٠ تطلع قبل كل شىء الى لوحات « جارى » الاربع التى تعرفها ٠٠ ثم الى مقعد أدبت حاليا والخزانة حيث الاوانى والفضيات الثمينة أن كل شىء لا يزال فى مكانه ولم يسرق بتروفيك شيئا ان الابله يكتفى بحصة من الاشياء البخسة الثمن ، وأثناء ذلك كانت الآنسة ديتزنوف منصرفة الى فتح النوافذ كى لا تقطع على الغريب تأملاته ودخل النور وهو يضىء كل شىء ٠٠ وارسل النظر من وراء الزجاج الكبير الى الحديقة ٠٠ وجـد كانيتز الفرصة مؤاتيه مرة أخرى وعليه أن يبادر الآنسة بالحديث ٠

ـــ ان منظر الحديقة رائع ٠٠ انه لرائع ان يسكن الانسان هنـا ٠

وردت عليه ولم يكن ردها صادقا : أجل ٠٠ غاية فى الروعة ٠

وشعرت هى أن كانيتز قد فطن الى الفتور فى ردها فعادت تقـول :

ـــ ان الاميرة لم تسر من المعيشة هنا فى حقيقة الامر ٠٠ كانت تقول ان البلد الذى تكثر فيه السهول يثير شجانها ٠٠ لم تكن تحب سوى البحر والجمال ٠

وتوقفت عن الحديث ٠٠

وقال كانيتز فى نفسه : علينا ان لا نقطع حوارا بدأناه ٠

ـــ ولكنك يا آنستى يبدو انك لاتشاطرينها الرأى ٠

فرفعت يديها عفويا كأنها تبعد شيئا ما أزعجها وقالت :

ـــ أنا ، ولماذا اعانى ان أفعل هنا لا ٠٠ لا سأذهب عندما

تعود الامور الي نصابها ويترتب كل شيء ٠

وتطلع اليها كانيتز وقال لنفسه :

ــ كم تبدو حقيرة فى تلك الغرفة ٠٠ يا لها من مالكة تعيسة ٠٠ لولا ذاك الشحوب البادى على وجهها والخوف المسيطر على نفسها ٠٠ لظنناها جميلة ٠٠ ان وجههـا المستطيل الشكل وأهدابها الطويلة المسدلة اشبه بمنظر أفسد رونقه الشتاء ٠٠

وعرف كانيتز وهو الخبير المجرب أنه امام شخص ضعيف الارادة والكيان ٠٠ ولذلك سألها :

ــ ولكن ماذا سيحل بهذه الارض الجميلة ؟ انها تحتاج الى ادارة حازمة وقوية ٠

وجاءه الرد سريعا :

ــ لا أعرف ٠

لفظت هذه الكلمات بعصبية واضحة ، بينما كان الارتبـــاك يسود كل جسدها ويهزه هزا فى تلك اللحظات بالذات فهم كانيتز أن هذه المرأة التى كانت لعدة سنوات تخضع لسيطرة الامبرة ســـوف لا تكون لها الشجاعة الكاملة كى تقرر شيئا ما من تلقاء نفسها ، كما انها تبدو خائفة من ذلك الميراث أكثر منها مسرورة منه ٠٠ انه بالنسبة لها عبئا غير قليل يسقط فوق منكبيها ٠

وفكر بسرعة البرق أن ما فعله طيلة العشرين عاما الماضية من البيع والشراء كان الفصل الاول من مهنة الوسيط ، وهنا عمد الى استعمال أساليبه الخاصة ٠٠ يجب ان يجعلها تكره هذا المكان وفكر ولربما توصل الى تسوية للقضية فيقطع على بتروفيك هــدفه

ويسبقه من يدرى ؟ لعل المسئول لم يذهب الى غبينا الا من أجل هذا الهدف ·

ثم قال يخاطب الآنســة :

انك على حق فى ذلك فان كثرة ما يملكه الانسان تثير له من الهموم الكثير ·· اذ أنه يتعين علينا ان نبقى فى صراع دائم مع المسئولين ، الجيران ، علينا ان نرجع دائما الى الضرائب ، والمحامين، اننا محاطون بالاعداء دائما ومهما فعلنا ، يتسابقون لاقتســـام الامــوال ·

ــ انك على حق يلزم لادارة تلك الممتلكات ادارة من حديد والا لا نحصل على شىء منها حتى ولو أننا ولدنا من أجل هذا ·· نجد انفسنا دائما نتصارع ·

وقالت متنهدة :

ــ للأسف ان الناس فى منتهى القسوة عندما تصل الامور الى الاموال لم أعرف حقيقة هذا الامر الا بعد ان وقعت فيه ·

وكان عقــل كانيتز يعمــل ويفكر كيف يمكنه ادارة هــذه الممتلكات ؟ فوجد اجابته أنه يؤجر كل شىء الى بتروفيك ويحتفظ لنفسه بالقصر فقط ·

ان ما يهم الآن هو عرض مبلغ على الفتاة ·· انها ســوف تقبل ·· ان نظرية التخوف التى تسيطر عليها ســتجعلها تقبل ·· انها لا تعرف أن تعد لانها لم تربح ابدا ·· ولذلك لا تستحق أكثر من ذلك ·

وبينما كان عقله يعمل بحرارة ·· كانت كلماته تخرج محاولة

ان تسيء الى شعورها وكانت هي تصغى اليه ثم قالت :

ــ انني أود ان ابيعها ٠

وكان عقله ما يزال يقوم بعملية الحساب والعد ٠٠ اربعمائة

ــ البيع ٠٠ اجل ٠٠ يمكننا ان نبيع دائما ما يسبب لنا الازعاج ٠

وكان عقله ما يزال يقوم بعملية الحساب والعد ٠٠ أربعمائة الف كرونا ٠٠ واذا لم تقبل أربعمائة الف وخمسمائة ٠٠ انه الحد الاعلى للفصال معها ٠٠ عملية من عمليات النصب والاحتيال المشروع ٠

وقال لها مستدرجا :

ــ هل لديك تقريبا فكرة عن الثمن الذى تطلبينه ؟

وأجابت وهى مضحوكة القوى من التفكير :

ــ كلا ٠٠ كلا ٠٠ لم أفكر على الاطلاق فى مسألة النقود ٠
وبينما كان كانيتز يحاول ان يكتم صورة من ملامح الجشع التى تسيطر عليه سألها :

ــ هل هناك أية انواع من الرهونات على العقارات ؟

ــ رهونات ؟

وأخذت تعيدها وكأنها تسمعها للمرة الاولى ٠

واكمل كانيتز :

ــ آه مثال أتعاب محاماة ، ضريبة الارث أعذريني انى انصحك فقط ، ألم يقل لك المحامى اية اشيئاء من هذا القبيل ؟

— محامى ؟ أجل ٠٠ اجل ٠٠ لقد كتب لى شيئا من هذا القبيل انتظر وسأطلعك ٠

ولكنها توقفت وترددت قليلا ثم قالت :

— أخشى ان ازعجك بهذه الاشياء التى لا تخصك ٠

وارتجف كانيتز كان كل شىء يأتى اليه أسرع مما يذهب اليه هو ٠٠ ولذلك انحنى بتواضع وضحك فى صمت وقال :

— يسرنى ان أرافقك يا آنستى ان لى خبرة كبيرة فى هذا المضمار ، لقد كانت الأميرة تشاورنى عندما تحتاج الى المعلومات الاقتصادية والمالية ٠

وذهبا الى حجرة المكتب وكانت الأوراق الكثيرة مبعثرة هنا وهناك فى اهمال واضح ٠٠ وأخذت تفتش فى ارتباك واضح ٠٠ واخيرا عثرت عليها وقالت :

اظنه هو ٠

تناول كانيتز الورقة وتفحص القصاصة الملصوقة بها ٠٠ كانت رسالة مقتضبة من المحامى النمساوى يقول فيها :

(اتصل بى مندوب التأمين وأخبرنى ان القيمة التقديرية للارث منخفضة جدا ٠٠ وانه يصر عليها تهربا من دفع الضرائب الباهظة ٠٠ وكما أنها فى نظرى لا تساوى الا ربع القيمة الحقيقية) ٠

من ذلك وبده ترتجف ٠٠ ان كل ما يهمه هو هذا القصر فحسب ٠٠ كانت قيمته كما هو مكتوب فى الورقة مائة وتسعين ألف كورونا ٠

وشحب وجه كانيتز ٠ كان ذلك ما قدره هو ٠ اذ أن القيمة الحقيقية هى ثلاثة أضعاف ما ورد أمامه أو ما يقارب مبلغ الستمائة

الف كورونا ٠٠ ترى كم يمكنه ان يعـرض عليهـا الآن ؟ وراحت الأرقام تتراقص امام عينيه ٠

وسالته الآنسة قائلة بخوف :

ـ هل هذه هى الورقة المطلوبة ؟ وهل يمكنك أن تقراها لى ٠
اجابها وقد خرج عن شروده :

ـ بالطبع ، ان المحامى يخبرك علما بالقيمة : مائة وتسعين الف كورونا ٠٠ انها قيمة تقديرية بالطبع ٠

ـ قيمة تقديرية ٠ عفوا ٠٠ وماذا يعنى ذلك ؟

وكان عليه أن يضربه ضربته الآن ، والا افلتت منه فرصة العمر قال لها :

ـ القيمة التقديرية هى شىء غير حقيقى يشـك فيهـا ، اذ ان

التقدير الرسمى لا يتجاوب أبدا مع سعر البيع الحقيقى ٠

ـ كم تقول ؟

وشعر ان الدم يصعد الى جبهته وهو يقول لها :

ـ أجل هذا ما فكرت به مائة وخمسون الف كورونا ٠
وعادت المخلوقة الوديعة تسأله :

ـ الا تظنه يساوى أكثر ؟

ـ لا ٠٠ يا آنستى ، انما يمكننى ان احصل لك على هذه الكمية

فورا اذا رغبت فى البيع بالطبع ٠

ووجدت ان ما يعرضه عليها كانيتز مناسـبا ، واتفقا على انه ترحل الى فيينا عندما يتدبر هو امر المشترى الجديد للقصر ٠

غادرا المنزل بعد الظهر وقبل الرابعة عندما وصل بتروفيك كافكا

قد رحلا وسافرا فى الدرجة الأولى وقادها الى فينا الى أحد الفنادق الفاخرة حيث نزل هو فى غرفة مجاورة لها • كان ينوى ان يقدمها الى شريكه فى المؤامرة الدكتور كولينجر على أنه المشترى الجديد ولكنه لم يستطيع ان يتخلى عنها ولو لفترة واحدة كما انه لم يترك لها دقيقة واحدة من الراحة والاستقرار •

اقترح عليها ان يذهبان الى الأوبرا ويمضيان سهرة رائعة بينما هو يستمر فى البحث عن الرجل الوهمى لعقد صفقة الشراء •

ونزلت المرأة عند رغبته لتتخلص من الضجر والعزلة المحيطان بها وتركها هناك لمدة أربع ساعات بينما خف هو الى لقاء كولينجز المزعوم • لم يكن هذا الأخير فى منزله ، بحث عنه طويلا واستطاع ان يجده فى أحد البارات ووعده بألفين من الكورونات كأجر ان هو دبر أمر كل شىء ونظم عقد البيع بالطريقة التى يرغبها كى يتسنى له لقاء كاتب العدل هذا المساء بالذات •

وترك كانيتز العربة التى اقلته الى منزل الدكتور تنتظره • وما أن انتهى من ترتيب خطته حتى عاد مسرعا الى دار الأوبرا حيث ترك المراة ويعود بها الى الفندق •• ومرت عليه ليلتان دون ان يغمض له جفن خلالهما •• وكان كلما اقترب من الهدف يشعر بالخوف يشده ويضغط عليه خوفه من أن يفقد الفتاة فى اللحظة الأخيرة انه يرقد فى سريره نصف ساعة ثم يعود الى دراسة خطته والتأكد منها بكل دقة •• عليه ألا يتركها وحدها مهما كانت النتيجة ، ولذلك استأجر عربة تنقله الى حيث يريد ، لم يكن ليسير خطوة واحدة سيرا على اقدامه خوفا من اضاعة الوقت وفقدان ألفتاة بالتالى ، يحاول ابعاد الصحف عنها ولا يتركها تفسر شيئا،اذ ربما وقع نظرها

على قضية الارث التى سيعاد النظر فيها • كانت كل مخاوفة مبالغ فيها •• اذ أن الفتاة نفسها لم تحاول ولو مرة واحدة التخلص منه •

وعندما عاد الى الفندق بعد ليلة متعبة وجدها تنتظره هناك فى غرفة الاستقبال •• وقادها الى صاحبه المزعوم وهناك اتصل تليفونيا بأشخاص لا وجود لهم •• أخذها الى البنك وهناك طلب مقابلة المدير وراح يحادثه بالفائدة التى يقدمها البنك وكيف يمكنه استخدام نقردها واستثمارها ، لقد اعتاد على مثل هذه الأمور ولم يعد يجد فيها ما يزعج اذن ان اثنتا عشر ستكفى للتمرس بأعمال كهذه •

كانت تنفذ كل ما يطلب اليها ، توقع على الاوراق دون ان تقرأ ما ورد فيها ، تعطى ايصالات دون ان تقبض قيمتها بعد •

تقوم بكل هذا فى هدوء مما جعل كانيتز يفكر بأنه يمكنه أن يدفع لها مائة وأربعين الفا او حتى مائة وثلاثين الفا ••

وشعر بارهاق فعرض عليها ان يدخلا احد المقاهى ويرتاحا ••

لقد تم كل شيء ولم يعد هناك سوى الذهاب الى كاتب العدل فى تمام السابعة فيوقعان الأوراق بعدها يدفع لها المبلغ المتفق عليه •

وتطلعت اليه ووجهها يوحى بالبراءة والثقة اليه ثم سألته :

ــ هل أستطيع ان اعود غدا صباحا ؟

ــ بالتأكيد ، اذ انك ستكونين الانسان الاكثر اطمئنانا خلال ساعة واحدة من الآن ولم يعد بك حاجة للتفكير بالأرض والمال ، ان الستة آلاف كورونا التى ستقبضينها تكفيك وتفيض ويمكنك ان تعيشي حسبما تشائين واينما شئت •

وسألها بطريقة مهذبة :

ــ الى أيمكان تنوين الذهاب ؟

فتجهم وجهها فجأة وأجابت ..

ــ فكرت أنـــه من المستحسن ان اذهب اولا لزيـــارة بعض أقاربى فى وستفالى واعتقد ان هناك قطارا ســـيذهب الى هنـــــاك صباح الغـــد •

وهنا اظهر كانيتز لباقة فائقـــة اذ انه تنـــاول دليل ألسكة الحديدية وراح يدرســـه بدقة ويخطط الرحلة لفتاة ، تبين له أن قطار السكة الحديد الذي يصل الى فرانكفورت هو الافضل •

ومر الوقت سريعا أكثر مما كان ينتظر كانيتز •

وهنا نظر الى ساعته وعاد يقول :

والآن هيا بنا الى كاتب العدل ساعة واحدة تكفى لترتيب الامور ويصبح هو مالكا لثلاثة أرباع الارث •

وعندما قرأ صاحبه اســـم قصر الأميرة والقيمـــة المعروضـــة لشرائه تطلعاليه غامزا وهذا معناه··انها فرصة ذهبية ممتازة··عرفت كيف تستغلها حتى أن الكاتب نفسه تطلع من وراء نظارته وابتسم وقال لنفسه :

(امرأة مسكينة وقعت فى ايد سيئة) •

ولكنه لم يفض بشىء ··· ليس من شأنه ولا من حق كاتب

العدل أن يتدخل بين بائع ومشترى ، وهيأ العقد وطلب الى الطرفين ان يوقعاه ·· فأوما الي الآنســـة ديتزنوف وارتعشت الانســـانة الخجولة ·· وتطلعت الى الكاتب وكأنهـــا تســـأله ماذا علينا أن

فتعمل .. هز برأسه مشجعا فتقدمت من الطاولة ووقعت اسمها .

الاتفاق واضح وبخط يقرأ .. ووقع صاحبه اسمه بسرعة .. وبهذا انتهى كل شيء .. وناول كانيتز الكاتب المبلغ ثم انصرف هو والفتاة وهو يكتم أنفاسه .. وما ان وصلا الى الشارع أستأذن من الفتاة اذ انه شعر بالخوف من ان يبقى وحيدا مع فريسته .

ولكنه قال سأرافقها حتى الفندق ثم ينتهى كل شيء .. حتى فريسته المسكينة بدت منزعجة قلقة ، وراحت تسير بخطوات وئيدة وتفكر .. ولاحظ كانيتز هذا التغير ولم يقل شيئا .. كان يحس بها تفكر بكل شيء وهى تنقـل خطاها ، أظنها فهمت الآن بأننى المشترى ، ولربما انهالت على بالملامة والتقريع وانها حد نادمة على ما قامت به وستذهب منذ الغـد لمراجعة محاميا ، ولكنها اشتعلت فجاة وتملكتها الشجاعة ثم اقتربت منه وقالت :

ـــ عفوا .. وبما أننى سأذهب غدا اود ان ينتهى كل شىء اليوم اريد ان اشكرك اولا عن كل ما عانيته من أجلى ، وارجوك ان تخبرنى كم ترغب بدل اتعابك ، اذ انك خسرت وقتا طويلا ، وانت تعمل من اجل هذا .. اريد ان اسدى كل شيء قبل ذهابى .

وفجأة توقف قلب كانيتز عن العمل وتسمر فى مكانه ، لم يكن ليتحمل مثل هذا الافصاح او ينتظره ، لم يكن مستعدا لاستقباله بالفعـل .

وأجابها بتلعثم : لا يتوجب عليك دفع اى شىء ابدا .

ثم أحس بالعرق يتصبب من وجهه . وتعجب كيف يحدث له هذا وهـو الذى امضى سنتين يخطط ويناور للحصـول على هذا العقار ، كم من المرات أهين واقفل فى وجهه الباب . اما ان يكره

انسانا ما فهذا لم يحدث له ولو مرة واحدة فى حياته ، وشعر بالرغم منه ان عليه ان يعتذر لهذه الفتاة اللطيفة ·

وقال :

— لست مدينة لى بشىء ، ولن اتقاضى اى شىء ، انا آمل ان يكون ما قمت به يتناسب والفائدة المرجوة اصالحك ، لربما كان علينا أن ننتظر مدة قصيرة فنحصل على فائدة اكبر من هذه ولكن ما العمل ·· لقد أردت ان يتم البيع بسرعة · ومع ذلك أظن العملية تمت لصالحك ·· نعم هذا ما اصرح به امامك وامام الله ·

احس انه استعاد انفاسه وعاودته صراحته فتابع يقول :

— بالنسبة الى انسان مثلك لايفقه من هذه الامور شيئا عليه ان يستعين بالغير ، عليه ان يقبض أقل مما يجب ويكون متأكدا مما قبضه ، ارجوك ان لاتأخذى باراء الغير وافكارهم ، ولهذا أردتك ان تنتهى من هذه المتاعب وتتركى اموالك فى البنوك ، حيث تتقاضين فائدة معينة وترتاحين · أقسم لك بأنك قمت بعمل جيد وممتاز ، اقسم لك على ذلك ·

وصلا الى باب الفندق فتردد كانيتز بالدخول · يجب ان ادعوها الى العشاء أو لقضاء سهرة بالاوبرا ·· قال ذلك فى نفسه ، ولكنها مدت له يدها تقول :

— لا أريد ان اعيقك اكثر ، يكفى ما قمت به من اجلى ، اذ انني ازعجتك ما فيه الكفاية انك منذ يومين وانت لا تقوم الا باعمالى ومرة ثانية اشكرك انه لم يحدث لى ان رأيت انسانا خدوما مثلك ·· لم اكن لافكر بان عملية كهذه يمكنها ان تتم سريعا ، اشكرك من كل قلبى واتمنى لك ليلة طيبة ·

أخذ كانيتز يدها ووقف برهة يتطلع اليها مشدوها تبدلت ملامحه بسرعة وعادت اليه شجاعته وثقته بنفسه ثم تدفق وجهه حيوية بعد أن كان أصفر شاحب اللون حاول أن يقول لها ولو كلمة واحدة ولكنها نظرت اليه وتخلصت من يديه برفق وسارت بخطوات أكيدة نحو غرفتها فتتبعها بنظرات مريبة وأحس برغبة فى التحدث اليها قبـــل أن تتركه واراد ان يناديها واذا بالبواب يعطيها المفتاح فتدخل الى حجرتها وتقفل الباب خلفها •

وهكذا تخلصت النريسة من صائدها ولكن كانيتز شعر بأن الضربة كانت موجهة اليه وبقى شاردا يتطلع الى القاعة الفارغة ، جذبته أضواء الشارع فسارع اليه لا يعرف ، لم يكلمه أحد بنعومة مثل هذه من قبل ، حتى انه لم يذكر ان هناك من نظر اليه هكذا • كانت آخر كلمة تفوهت بها تطن فى أذنيه أشكرك من كل قلبى •

كلمات رقيقة تأتيه من شخص مسكين خدعه كان يتوقف بين فترة وأخرى ليمسح حبات العرق عن جبينه •

أحس بالجوع فدخل احد المطاعم كانت كل لقمة تعضه وتدمى قلبه سأبيع العقار وسأبيعه حالا •• ماذا ترانى سأصنع به ؟ يدور الحوار بين عقله ونفسه مئات المرات ، اننى لست مزارعا . سأعيده اليها بعد أن أتقاضى ربحا لا يتجاوز العشرة بالمائة ، اننى على استعداد لاعادته اليها اذا كانت آسفة عليه •• انه يعزى نفســه بهذه الفكرة ثم عاد يفكر :

ــ سأكتب اليها •• لا •• سأحاول أن اجتمع بهـــا قبل أن تركب القطار •

أجل كان هذا ما عليه أن يفعله ، ان يعرض عليها فكرة إستعادة المعتار وهنا ظن ان بامكانه ان ينام الان ورغم قلقه فى الليلة الماضية لم يستطع أن ينام هذه الليلة • ترن فى اذنه كلمات الفتاة (أشكرك من كل قلبى.) وهذا مما كان يثير اعصـــابه ويقلق راحتــه لا يذكر أنه منذ ما يقرب من الخمسة والعشرين عاما أن عملا ما. اقلقه كالذى اتدم عليه الان اذ ان هذا كان قمتها فى السخرية والسعادة والاهمية ، منتهى التناقض أن تجتمع كل هذه الصفات فى عمل واحد •

فستيقظ كانيتز مبكرا ونزل الى الشارع فى تمــام الســـابعة والنصف •• كان يعلم أن القطار السريع لايترك المحطة قبل التاسعة صباحا •• ولكنه أراد ان يشترى علبة من الحلوى للانسة كان يشعر بأن عليه أن يلاطف هذه المخلوقة ويأمل فى سماع أخر كلماتها لذلك اشترى لها علبة الحلوى وباقة من الزهور ثم عاد الى الفندق وطلب من البواب أن يحمل الهدية الى الانسة فى غرفتها ولكن هذا أجابه انها فى غرفة الطعام •

فكر لحظة •• لقد كان وداع البارحة مساء مؤثرا ولذلك خاف أن يحدث الان شىء ما يبدد تلك الذكرى الحلوة ، ولكنه قرر أخيرا ان يدخل •

كانت المرأة تجلس الى المائدة وتدير ظهرها للباب وتقدم بحياء ووضع امامها علبة الحلوى وباقة الزهور وقال :

ـــ أشياء للسفر يا آنستى •

ارتعشت وتوردت وجنتاها خجلا لم تقدم أليها الزهور من قبل أبدا ، اللهم الا عندما كان أقارب الاميرة يطلبون منها ان تحملها الى سيدتها ، فعلت ذلك مرة •• وأجابت الفتاة :

انهـــا جميلة ورائعـــة ٠٠ أنها تعجبنى ونظرت اليه معترفة بجميله ٠٠ لم تعرف اذا كان انعكاس الأزهر أم فوران الدم هو الذى جعلها متوردة هكذا كانت تبدو جميلة جداً فى هذه اللحظة ، ثم طلبت منه أن يجلس ٠ وسألها بصوت يوحى بالثقة والطمأنينة :

ـــ ستذهبين اذن ؟

قالت بهدوء وقناعة :

ـــ نعـــم ٠٠

وسألها اذا كانت قد أرسلت برقية تعلن عن وصولها ٠ اجابتـــه :

ـــ لا ٠٠ ان ذلك سوف يرعب أقاربى اذ اننى لم ارسل اليهم برقيات من قبل ٠

وعاد يسألها مستمرا ٠

ـــ وهل هم مقربون جدا منك ؟

ـــ أجل ، ابنة اخ تملك ارضا لا بأس بها وقد طلبوا اليها ان تسافر اليهم وتقيم معهم قدر ما شاءت ٠

وسألها كانيتز :

ـــ وماذا ستفعلين فى هذا المكان المنعزل ؟

أجابته خافتة وبصرها الى الارض :

ـــ لا اعرف ٠٠

وتملك التأثر صاحبنا رويدا ٠٠ رويدا ٠٠ لقد وجد فراغا هائلا يحيط بهـــذه المسكينة ٠٠ وجـــد لديها عـــدم الاكتراث بالمستقبـــل وما يخبئه ٠٠ ان حالتها تنطبق علي حالته هو ٠٠ الذى لم يعرف

الاستقرار مثلها ·· وشعر بحيرته تتكرر أمام حيرة هذه المخلوقة ·

وقال بصوت مرتفع يملؤه التأثر :

ــ لا أجد لذلك معنى ·· لا يجب أن تقيمي عند الاهل فليس في ذلك منفعة ·· كما انني لا أراك بحاجة كي تدفني نفسك باكرا في ذلك الوكر ··

نظرت اليه وفي عينيها عرفان الجميل والحزن في آن واحد :

ــ انني أخاف ذلك فعلا ، ولكن على أن اذهب الى اى مكان ما·

قالت هذا وكأنها تحدث نفسها ·· ثم عادت تتطلعت الى كانيتز كمن ينتظر النصيحة وشعر كانيتز باحساس صادق غريب صادر من اعماق قلبه فهتف قائلا :

ابقى هنا معى ··

وارتعشت وتطلعت إليه مندهشة ، عند ذلك فهم أنه تلفظ بشيء لم تكن تنتظره منه وما كان يجب ان يقوله ·· أتته الكلمات عفوية دون أن يزنها ويقدر قيمتها في نفوس الاخرين ·· رغبة طارئة لم يعرف تفسيرها أو سبق له وشعر بها ·

وقالت هى :

كى أكون رفيقتك ؟ اليس هذا ما تعنيه ؟

ورد بسرعة متلعثما :

ــ أريد أن اقول لك ، اذا بقيت هنا ، سنتزوج ·

قفزت من مكانها وشفتاها ترتجفان ، ولم تدرى هل ستقع على الارض أم أنها ستنتحب أم تصفعه ؟ ثم خرجت من القاعة هاربة ·

كانت لحظة مخيفة في حياة صاحبنا ، لقد جرح وأهان الشخص

الوحيد الذى لاقى عنده كل احترام وتقدير • كيف يمكنه وهو الرجل المتقدم فى السن والمرائى القبيح أن يتجرأ على اعانة انسان ناعـم طيب القلب ؟ لم يغضب لتصرف مثل تصرف الانسة بل وجدها لا اراديا على حق ان هذا احسن تصرف فعلته رغم أنه قال لنفسه : لقد ذلت ما استحق انها تعرف من أنا ليتنى ما أستحق فعلا •

احس انه اخذ جزاؤه كاملا ومن حقها ان تحتقره الان وتنبذه •• ولكنها عادت وظهرت فجأة عند الباب • قلقة حائرة •• ترتجف وعيناها حمراوان • عادت الى الطاولة تسند كتفها الى المقعد كى تتمكن من الجلوس ثم قالت دون ان ترفع عيناها اليه :

ــ سامحنى •• أغفر لى تلك الحماقة •• كنت مضطربة جدا عندما تصرفت هكذا •• كيف يمكنك أن تصرح بهذا وأنت الذى لم تعرفنى جيدا ؟

لم يعرف بماذا يجيبها ، أو كيف يرد عليهـــا • وآثر الصـــمت واعتبر ذلك علامة موافقتها على ما قاله واصراره عليه ، ولم تسافر فى ذلك اليوم بل أمضت معه ثلاثة أيام •• وعاد وهو يكرر طلب الزواج منها ، واستمر هكذا طيلة شهرين ثم تزوجا ••

صمت الدكتور برهة ، ثم عاد يكمل حديثه :

ــ والان لى كلمة أخيرة •• كى أقول ماذا يحكى عن صديقنا هنا : انه احتال على الفتاة فتزوجها كى يمتلك الارض لا ليس هذا صحيحا على الاطلاق • كان كانيتز يمتلك العقار وليس بحاجة الى زواج لكى يؤول اليه • اذ ليس فى زواجه مقدار ذرة من التقدير ، ومن المستحيل ان يتقدم مراب على طلب يد فتاة بالاحتيال اذا كانت بجمال آنستنا هذه وبهاء طلعتها •

كان كانيتز يتخوف من شيء واحد فقط : وهو ان يأتي من يخبر خطيبته بأعماله القبيحة فتنفر منه وتحتقره واستعمل قسوة غائقة كي يبقى الستار منسدلا على ماضيه فوضع حدا لكل أعماله التى يخجل منها وأضاف الى اسمه كلمة (دى كيكسلفافا) ثم أختفى من الزمن الاسم الاول من بطاقته • عاش أيام خطوبته الاولى وهو يخاف ان تنفر الفتاة منه وتفقد ثقتها به • بينما كانت تنتظر هى بدورها أن تخذل وتهان أمام زوج المستقبل بعد أن عانت الكثير من هذا يوم ان كانت فى خدمة الاميرة ، فقنعت بالعبودية كحل وسط لكل هذه التخيلات وها هى الان تلمس فى ذلك الرجل الذى ربطت به مصيرها بمصيره كل عناية وتقدير واحترام ، كانت تعجب من كل

هذا ، اذ لم يكن بامكانها أن تفهم معنى هذا الحنان ، بدأت تحس بهجة الحياة ، وبدأت تتفتح مع تفتح كل يوم يمر بها بعد أن كانت

تذبل مع ذبول كل يوم يمر عليها ، استغرقت سنتين حتى شعرت بأنها تعامل كامرأة حقا يقدرها زوجها ويعزها ، ولم تعرف السعادة الحقيقية طريقها الى القلبين الا بعد ولادة أول طفل لهما •

من ثم عاد كيكسلفافا الى حب الاعمال والجرى وراءها فاختفى المشرف وتغيرت المفاهيم التى كان ينظر بها الى أعماله ، فأدخل التحسينات الحديثة الى معمل السكر وكف عن استقبال الناس فى منزله الا فى الحالات النادرة لم تكن مصائر الاخرين تهمه •• ولذلك وجه كل همه واعتنائه الى منزله ر[illegible]ـته ، وهذا مما كان يزيد فى سعادة زوجته وثقتها بنفسها وحبها له وتقديرها اياه •

وحلت التجربة الاولى ، كانت زوجته تعانى منذ زمن بعيد من الأمراض الداخلية ، لم تنفع فيها كثرة الاطعمة المغذية بل راحت تضعف رويدا •• رويدا •• كانت تحاول دائما أن لا تجعل زوجها

يشعر بألمها فتطبق شفتيها حتى تدميهما اذا ما انتابتها نوبة ..
وكان هو يجلس بقربها تمتنع عن الصراخ كى لا تزيد آلامه هو ، تريده أن يبقى فرحا مسرورا وتخفى هى صراخها ودموعها ، كانت تشعر أن ذلك هو واجبها الاول نحو زوجها وأسرتها .. ولكنها لم تستطع المقاومة طويلا .. وانهارت كلية ولم يعد بامكانها اخفاء آلامها ونقلت الى فيينا لاجراء جراحة مستعجلة ، اذ تبادر الى ذهن الاطباء المعالجين أنها لربما كانت تعانى من مرض مخيف .. وكانت المسكينة فعلا مصابة به .. وهنا تعرفت أنا الى العائلة .. كانت أول ردة فعل عند الشخصين .. خوف ، لم يكن الزوج يعلم أن مثل هـذه الامراض من الصعب شفاؤها فى وقت يسير ولذلك أرسل يستدعى أكبر الاخصائيين فى بودابست وعرض عليهم مائة ألف كورونا ، اننى لا أنسى مطلقا تلك اللحظات الرهيبة التى وقف فيها أمامنا وراح يسبنا ويقول اننا قتلة خائنون لا رحمة فى قلوبنا .

وتغير مجرى حياته منذ ذلك التاريخ مات فيه الله صحى بسببه لخدمته اله المال .. لم يعد له نفس البريق .. لم يعد الان على الارض سوى شخص واحد يهمه أنه .. ابنته .. التركة الوحيدة التى أصبحت هى هدفه فى المحافظة عليها جند لها الخدم والمربيات ثم أجرى تغييرا شاملا فى البيت ، لم يبخل بالصرف وهو المعروف ببخله واقتصاده ، حمل أبنته معه الى باريس وفيينا ، يدللها ويشترى لها ما تريده وما ترغبه بدأ يصرف النقود بنفس الطريقة التى جمعها بها .

سوف لا أطيل وصف عبادته لابنته ، كانت طفلة حلوة لطيفة .. نمت بسرعة تسترعى الانتباه لما هى عليه من الذكاء والفطنة .

ومع ذلك علينا أن لا نتخلى عنه الان بعد أن عاوده اليأس وجعله مريضا ومعقدا نفسيا ، انك تقوم بعمل رائع اذا أنت استطعت أن تدخل المرح والسرور من جديد الى ذلك البيت القاتم المقفر ولعلني أخبرك هذا كي تخدع الناس وتعرف أنت الحقيقة ولا تستمع الى أقاويل الاخرين وافتراءاتهم على هذا المسكين •

ولقد قصصت عليك حيـــاة صاحبنا تفصيليا وآمل أن يبقى ما قلته سرا بيننا وتوجه حالا :

ــ لك ما تريد •

كانت هذه أولى الكلمات التى أتفوه بها الى الدكتور منذ أن ابتدأ يسرد قصة كيكسلفافا كنت مأخوذا بالايضاحات الجديدة التى تهز الكيان •• ولكننى لم أستطع وقتها أن اعلم أن هناك عوامل كثيرة تتداخل وتتشعب فى حياة أديت •• وان شبحا مخيفا يرتبط بالماضى يخيم على هذا القصر ؟ وفجأة عاودتنى بعض التفصيلات التى لم أكن قد فهمت معناها بعد وكأن الدكتور كوندور عرف ما يدور فى خلدى فهمس فى أذنى وكأنه يهدىء من الشك الذى فى عقلى فقـــال :

ــ لا يمكنك أن تشك فى هذا مطلقا يا صديقى • ولنفترض أنه كان منذ زمن بعيد فكيف يمكنك مساعدته ومساعدة الفتاة المسكينة لا •• لا تتعجب •• وخاصة لا تخجل •• لقد تصرفت حسب غريزتك أحسن التصرف •

ألقى كوندور سيجارته فى المنفضة أمامه وتابع :

ــ والان حان الوقت لذهابى •

نهضت معه رغم أن معلوماته أدهشتنى فقد أثر فى وجعلنى اقلق واحتار كثيرا فتنبهت حواسى •

عنـدما خرجنا الى العـراء تطلع كوندور الى السماء وهتف قائـلا :

هـذا ما فكرت به أن ضياء القمـر يجذبني دائما ، ستنالنا العاصفة بعد قليل ٠٠ وعلينا الاسراع ٠

كانت توقعاته مصيبة ٠٠ استمر الهواء ساخنا بين البيوت وفى الازقة بينما راحت الغيوم السوداء تتلبد فى السماء وتحجب نور القمر فبادرنى كوندور قائلا :

ـ ستسقط الامطار فى مدى نصف ساعة وأظننى أستطيع الوصول الى المحطة قبل السيول أرى أنه من الافضل لك ان تدخل بيتك قبل أن تداهمك العاصفة ٠

لم أعد اذكر بالضبط ما كنت أنـوى ان اقوله ٠ لقد ضاعت افكارى فى غيابه المخيلة كما ضاع نور القمر واختفى وراء الغيـوم السوداء فى السماء ٠

وأجبته :

ـ لا أحب أن أجازف ٠

ـ اذن هيا بنا لنسرع فالعدو السريع مفيد لنا نظرا للتعب المسيطر على أقدامنا لكثرة الجلوس ٠

كانت قدماى شبه مشلولتين تذكرت فجأة المهمـة التى أوكلت الى ٠٠ لقد حان وقت العمل وعلى ان أسأل الدكتور كيف أصيبت ابنة كيكسلفافا بالشلل واذا كان هناك أمل فى شفائها ٠

وبينما نحن نسير فى الشوارع المقفرة اذا بى أجد نفسى أحدث الدكتور وأقول :

ـ عفوا أن كل ما أفضيت به الى جانب كبير من الخطـورة والاهمية لذلك أراك تفهم بأننى سأطلب اليك شخصيا ما يثيرنى ؟ فانت طبيب أديت وتعرف حالتها أكثر من اى شخص آخر لاكون فكرة واضحة عنها لذلك أردت ان اعرف فكرتك انت هل هو مرض عضال او انها ستشفى عما قريب ؟

تطلع الى بنظر ثاقب ومشكك ، هل تراه فهـم ما يـدور فى خلدى ٠٠ شك فى الموضوع ؟

أخفض رأسه ودون ان يخفف من خطواته بدأ يقول :

ـ طبعا ٠٠ كان يجب على ان اشك اذ انه دائما ما تنتهى الامور هكذا ٠٠ تشفى ٠٠ أو لا تشفى ؟ اسود أو ابيض ؟ ان عدم الشفاء لا يتعدى كونه مسألة نسبية وليست حتمية ، ليس هناك من حالات لا يرجى شفاؤها بالنسبة للطب لسنا بصدد هذا الان ٠

كان كوندور يسير على عجل مما دعانى الى الركض كى ألحق به وفجأة خفف الخطى وقال :

لربما فسرت لك الموضوع بطريقة معقدة أو وهمية اذ من الصعب تفسير مثل هذه الحالات بين المتهى والمحطة ، ولكننى ساعطيك مثلا يمكنك فهـم ما أردت أن أقوله لك انه قصة شخصية حـدثت لى وتؤلمنى ذكراها جيدا ٠

حدث ذلك وأنا طالب فى كلية الطب ولم يكن عمرى قد تجاوز الرابعة والعشرين ٠٠ كنا فى آخر الفصل الدراسى تقريبا ، فأصيب والدى بمرض شديد ٠٠ انتهت أبحاث الاطباء الى انه مريض بـداء السكر ٠٠ انك لم تسمع بمثل هذا المرض على ما أظن ، انه من

الانواع الخطيرة التي تجتاح الانسان ٠

أسمع الان تفسير ذلك :

العلم لا يزال يجهل علاج السكر ٠٠ يعذب المريض كثيرا اذ يخضعونه لفحوص طبية قاسية ٠ لا يستطيع ان يأكل ما تشتهيه نفسه ، حتى كوب الماء أو الحليب يقيسون له حرارته انه نزاع مستمر أشبه منه بالموت ٠٠ لا بل ان هذا الاخير أفضل منه لما يحمله من راحة ٠٠ لا يمكنك أن تصور كم درست من الكتب حول هذا الموضوع ثم كم عقدت من الاجتماعات وطلبت المزيد من الاستشارات ، كنت أسمع الجميع يرددون : مرض عضال صعب شفاؤه ، وها أنا منذ ذلك الحين أكره هذه العبارة ٠

استمرت الحالة هكذا حتى كان يوم البارحة واستمعنا الى محاضرة حول الموضوع ألقاها أحد الزملاء وجاء في محاضرته ان هناك مجموعة من العلماء الامريكيين تعمل جادة كي تحصل على دواء شاف تستخرجه من بعض الغدد فاذا توصلت الى نتيجة تمكننا من أن نسيطر على مثل هذا المرض العضال في مدة أقل من عشر سنين ٠

اظنك تفهم الان مدى ما كنت تتركه هذه العبارة في نفسي من سأم ولوعة ٠٠ عندما كنت في الجامعة كان داء السفلس عضالا ٠ أما اليوم فهو سهل وقابل للشفاء تماما ، لم يمت نيتشه أو شوبان أو غيرهم نتيجة مرض عضال ٠٠ لا ٠٠ انما ماتوا بأمراض لم يكن الطب بعد ليستطيع أمامها شيئا ولذلك يمكننا القول انهم ماتوا مبكرا ٠

ان أديت تعاني الكثير وغالبا ما يتمرد المريض في مثل هذه

الحالات الدقيقة •• انما سوف لا اتخاذل •• سأستمر فى العلاج باحثا عن الشفاء •

كنت أصغى الى كلام الطبيب باهتمام بالغ كان كل ما اخبرنى به واضحا ، وانتقل الحزن والاسى المسيطرين عليه مباشرة ولا شعوريا •• كنت أريد ان اعرف اشياء اكثر من هذا واسمع ما هو ادق من ذلك ولذلك سألته :

ـ هل تعتقد بتحسن ما ؟ أى هل توصلت الى ايجاد طريقة ما للعلاج ••؟

لم يجب كوندور مباشرة اذ يبدو عليه ان ملاحظاتى ازعجته لذلك أسرع بخطاه وصرخ قائلا :

ـ كيف يمكنك ان تجزم بأننى وجدت طريقة أو توصلت الى شىء مفيد ؟ هل لاحظت أنت ذلك بنفسك ؟ واجمالا ماذا تعرف عن هذا الموضوع ؟ اذ انك لا تعرف المريضة الا منذ أسبوع بينما أعالجها منذ خمس سنوات •

توقف فجأة والتفت الى وقال بعصبية :

ـ يجب ان تعرف اننى لم اتوصل الى شىء بعد لم اتوصل الى النتيجة التى ابحث عنها فهمت ؟ وهناك يكمل سؤاله : لقد حاولت فقط جميع مراحل العلاج وحتى الان لم استنتج منها شيئا •

أخافنى غضبه فحاولت تهدئته فقلت :

وما تعانيه أديت منها •

ـ رغم أن السيد كيكسلفافا حدثنى عن الجلسات الكهربائية لم يتركنى كوندور أنهى حديثى بل قاطعنى ليضيف :

ـ خرافات ٠٠ مجرد حماقات لا أكثر اياك ان تعير ما يقوله لك ذلك الكهل أى اهتمام ٠٠ هل تظن ان مثل هذه الجلسات كفيلة بشفاء ابنته ؟ عندما لا نعرف ماذا نفعل نشغل المريض بعلاج وهمى كى نصرفه عن حيرته التى يعانى منها ٠٠ اننى لا اعرف اكثر من اى انسان آخر ٠٠ ما هى النقطة الهزيلة التى يمكننى الحصول عليها من أديت ٠

وجدته عار تماما امام ضميره ولذلك حاولت ان أخفف عنه فقلت :

ولكننى رأيتها تمشى تسند الى عكازات طبية ٠

لم يجب الدكتور بل تقدم منى وحدق فى وجهى قائلا :

ـ خرافات ، قلت لك ٠٠ انها آلة تصلح لى وليس لها ، ان مثل هذه الآلات صنعت خصيصا لالهاء الناس وليس لشفائهم ٠٠ هل فهمت الان ٠٠ ليست أديت التى تحتاج اليها كما قلنا بل أنا ولماذا ؟ لكى أهدىء من روع ذلك المجنون ٠ كان على أن أربح الوقت ولكننى لا اخجل من هذه الحيل والخدع ، ستشاهد النتيجة بنفسك ٠٠ اعتقدت أديت منذ استعمالها انها أصبحت على درجة كبيرة من التحسن لا أظنك سررت كثيرا بهذا ٠٠ اذ لا تجد الفكرة التى كونتها عن هذا الطبيب البارع ٠٠ صديق العائلة ٠

صور لك اندفاع الشباب ان الطب قادر على كل شىء ٠٠ وها أنا أراك تتخاذل ويدب عدم الثقة بنفسك ٠٠ ولكنى اسف لذلك ٠٠ اذ انه ليس هناك علاقة بين الطب والاخلاق ، فكل مرض هو عمل رجعى فى حد ذاته ٠٠ انه ثورة ضد الطبيعة ولذلك علينا ان نجند كل ما نملك ضده ٠٠ علينا ان لا نشفق على المريض ٠٠ ان

المريض هو الذى يخرج عن القانون ويجرح الشريعة من تلقاء نفسه ، ولكى نعيد النظام علينا ان نشفى المريض •

اكفهرت السماء وازدادت غيومها سوادا ودوى الرعد ولمع البرق فأخذ كوندور يضحك ويقول :

لا شك أنك تسمع جواب الماء مسكين انت لقد أسىء اليـوم اليك • عليك ان تعرف مدى الازعاج الذى تسببه عبارات المديح ،
سار بضع خطوات ثم التفت ناحيتى وعاد يقول :

ــ أريدك ان تعرف اننى لم أهجر القضية أبـدا •• لا شئ سأتكمل بحزم ولو استدعى ذلك خمس سنوات اخرى ، والان دعنا من حديث المهنة •

كنا قد أقتربنا من المحطة وعلينا أن نضع حدا لحديثنا لذلك اسرعت اقول له :

ــ أظنك تعرف طبعا •
توقف فجأة وقال لى :

ــ لا افتكر شيئا •• وليس هناك ربما أو بالتالى •• ماذا تريدون جميعا منى •• ؟ لم أقل شيئا •• ولم أصرح بشىء اكيد بعد •• لا افتكر بشىء • ولا اعتقد بشىء •• مفهوم الان ؟ •• كما اننىلا أعد بشىء ابدا •• ولا اقطع على نفسى وعودا يكفى هذا، الان •• لقد قلت ما فيه الكفاية •• ولست راغبا فى المزيد •• يكفى ، وشكرا لمصاحبتك لى •• ارى انه من الافضل لك ان تعود الان والا تبللت حتى العظام •

ولم يمد يده ويصافحنى بل اتجه نحو المحطة راكضا دون أن يلتفت الى الوراء •

أنها كانت تتحرق شوقا للمعرفة ولكنها لا ترغب بأن يكون ذلك على مسمع من هذه الجموع ، وتم لها ما أرادت بعد ان نقدها السيد كيكسلفافا مبلغا لا بأس به ٠٠ وقلت للسيد :

ــ هيا بنا حان وقت الرحيل ٠

وساعدنا أديت على الوصول الى العربة ووقف الجميع يحيوننا على طريقتهم الخاصة وانطلقنا فى رحلة العودة ٠

بقيت مدة مضطربا وانا جالس أمام اديت فى العربة ، جسمها يرتعش كله يبدو ان هناك فكرة ما تملكتها وسيطرت عليها وفجأة انفجرت فى البكاء بكاء الفرح كانت تبكى وتضحك فى آن واحد ، ليس هناك شك بأن تلك السيدة العرافة قد وعدتها بالشفاء وربما بأشياء أخرى أيضا ٠

وفجأة اخذت تردد وهى تنتحب ونحن نحاول تهدئتها :

ــ دعونى ٠٠ دعونى ٠٠

وكررت نفس الكلام :

ــ دعونى فانا اعلم ان ذلك ليس مجدى ومع هذا اتركونى اتخيله حقيقة اذ بامكان الانسان ان يخدع ولو مرة واحدة فى حياته ٠

كان الوقت متأخرا عدنا الى القصر رجونى ان ابقى واتناول معهم طعام العشاء ولكننى رفضت ووجدت ان فى هذا كفاية اليوم كله ، لقد كنت مسرورا جدا طيلة هذا النهار ، المشمس الجميل ، ولا ارغب ومن المستحسن ان اعود الى الثكنة سالكا الطريق المعتاد هادىء النفس كالهواء المنعش الذى يهب فى نهاية الليالى الصيفية ، كنت فى حالة نشوى كبيرة حيث يتبين لك ان العالم كله موسيقى

الفصل الخامس

أوشكت العاصفة التى طال انتظارنا لها ان تنفجر ولذلك كنت أرى الناس يسيرون باتجاه منازلهم خوفا من الرياح والامطار ، وكان امامى شارعين على ان امر بهما ثم الحديقة العامة قبل ان ادخل الى الثكنة .

اسرعت الخطى فعبرت الشارعين وما ان وصلت الى الحديقة واذا بى أفاجأ بالسيد كيكسلفافا جالسا هناك .

لم أصدق عينى فى بادىء الامر .. كيكسلفافا جالسا هنا ؟ مستحيل ماذا تراه يفعل ؟ لقد تركته يستعد للنوم منذ ثلاث ساعات هل أنا فى يقظة أم حلم ؟ إنه هو بنفسه .

تقدمت منه وسألته بوجل :

ـ ماذا أتى بك الى هنا ؟ قل لى بحق السماء الم أتركك تستعد لتأوى الى فراشك ؟

ـ لا .. أو بالاخرى لم أستطع النوم ، كنت أريد ان . ولكن اسرع بالدخول الان .. الست ترى ان العاصفة ستهب بين وقت وآخر ؟ هل أتيت بسيارتك ؟

أجل انها هناك الى شمال الثكنة بانتظارى .

ـ رائع ٠٠ ولكن هيا بنا ٠٠ أسرع ٠٠ فبامكانك الوصول قبل هطول الامطار ٠

وجدته مترددا فأمسكت بذراعيه اصحبه معى ولكنه استعاد قواه فجأة وأفلت منى وما أن اصبح بعيدا حتى قال :

ـ حالا يا سيدى الكولونيل ٠٠ سأذهب ٠٠ انما أخبرنى كل ما قصة عليك ٠

ـ من ؟

ـ الدكتور : لقد رافقته وتحدثت اليه بالتأكيد ماذا قال لك :

عند ذلك فقط فهمت ما يرمى اليه ولم يكن هذا اللقاء عفويا بل ، لقد انتظرنى المسكين فى الحديقة كى أقص عليه ما سمعت كان يرقبنى وينتظر عودتى بفارغ الصبر وأجبته :

ـ ان كل شىء يسير على ما يرام وسينتهى كل شىء حسنا اذ أننى واثق من هذا سأخبرك أشياء أخرى بعد ظهر غد وانقل اليك الحديث الذى دار بيننا حرفيا اسرع الان الى سيارتك ليس امامك وقتا تضيعه ستهب العاصفة حالا ٠

ـ أجل سأذهب :

وسار بالرغم منه ونجحت فى أبعـــاده عشرين خطـــوة وفجأة شعرت به يتراخى فى السير ويثقل جسده فوق ذراعى وقال :

ـ لحظة من فضلك ٠٠ دعنى أجلس لحظة واحدة ٠٠ لم أعد أستطع السير ٠

كان يتأرجح بالفعل ٠٠ كرجل مخمور ٠٠ استعملت كل ما لدىّ من قوة كى أصل به الى مكان يقيه المطر الغزير ٠٠ وما أن جلس فوق

مقعد صغير حتى هبت الرياح عاتية وأنهمر المطر ورمى بجسده فوق المقعد يستعيد أنفاسه ٠٠ لقد أنهكه التعب كيف لا وهو الرجل الكهل المريض بقلبه ، عندئذ فقط تبينت مدى قوته ٠٠ كان يجلس وهو يتصبب عرقا ٠٠ وتملكتني الشفقة فانحنيت فوقه قليلا وأخذت اتحدث اليه بهدوء أخبرته بالعلاج الذى جربه الاستاذ فينوم ونال نجاحا كبيرا في باريس ٠

أحسست بجسده يعتـدل وكأنـه يحاول الالتصـاق بى ليستدفىء ٠ عند ذلك لم اعد استطيع ان اقول شيئا اذ وجدت نفسى مندفعا فى بحر العواطف الجياشة تجاه هذا الكهل البائس ، حدثته عن النتائج الفعالة التى أدت اليها البروفيسور ٠

لم يدع شيئا الا وسأل عنه ٠ وكان يختم قوله دائما (هل تظنه على حق فيما يقول) أو (هل قال ذلك حقا) ؟ كنت أشعر بثقته تعود الى نفسه كلما افضيت اليه بمزيد من حديث الدكتور لا يمكننا ان نتصور مدة الفرحة التى كانت تعم نفسه فى لحظة كهذه ٠

من يعلم كم بقينا من الوقت هناك لولا ذلك الهبوب المفاجىء الذى يسبق العاصفة ويطرد الخوف من نفوسنا انحنت الاشجار تقبل الارض بقسوة حتى أننا سمعنا أغصانها تتكسر واحاط بنا غبار كثيف وتساقطت أمامنا اثمار الكستناء بكثرة ٠

وقلت له وأنا أرفعه :

ـــ عليك ان تذهب الى المنزل الان ، عليك ان تهدأ وتستريح ،٠

لقد شجعته كلماتى وشدت عزيمته وحملته الى العربة وهممت ان القى عليه تحية الوداع وانا انظر اليه بحنان ٠

وحدث امر لم اكن أتوقعه من ذلك الكهل المسكين اذ انه أخذ يدى بقوة وحملهما الى فمه يقبلهما مرات عديدة ، كل يد على حدة •
ونزعت يدى منه وقلت :

ـــ الى الغد •• الى اللقاء غدا •

وانطلق بعربته وبقيت أنا وحدى مندهشا من الموقف ولا ادرى كم من الزمن مر وأنا على هذا الحال •

عدت فى اليوم التالى الى القصر ولم أفكر بحادث الليلة الماضية لا كمجرد فكرة عابرة ؟ كنت مسرورا من شهامتى وخاصة ما سببته لى من ارتياح داخلى ، وما أن قرعت باب القصر حتى أتى الخادم يفتح الباب ويستقبلنى بحفاوة بالغة ، لم أعهدها فيه من قبل ثم سألنى :

ـــ هل يريد سيدى الكولونيل ان اقوده الى شرفة البرج ، حيث الانستين تنتظرانه ؟

ونظرت اليه •• ولكن مالى أرى يديه تشيران بالحاح وعينيه تشعان بالفرحة الكبرى ؟ لماذا هو على عجل من أمره ماذا حـــدث ياترى ؟ كنت أتساءل وأنا أتهيأ لصعود الدرج المؤدى الى الشرفة ما به اليوم ؟ ولماذا يلح كى يرانى فوق ؟

ترامى الى صرت مسمعى موسيقى حالمة فرقة كاملة تعزف الحانا عذبة هناك فى أعلى البرج وأصخت السمع •• اجل •• لقد كان ذلك الصوت صوت أيلونا •• صوت رخيم ومثير كذراعيها •• أما الصوت الباقى فلم أستطع معرفـــة صاحبته • لربما عزمت أديت احـــدى صديقاتها •• كانت دهشتى عظيمة عندما وصلت الى أعلى ولم اجد فى

الشرفة الا الفتاتين أذ كان الصوت الثانى صوت أديت دون شك :

ومما زاد فى دهشتى كون الفتاتين لم تفاجا بقدومى :

وصرخت أديت :

ـ تعال الى هنا بسرعة ٠

ثم التفتت الى أيلونا وقالت لها :

ـ أوقفى الجرامافون ٠٠

ثم أشارت ألى لأقترب منها واجلس بجوارها :

ـ وقالت لى :

ها أنت اخيرا هنـا ٠٠ لقد كنت أنتظرك بفارغ الصبر :

اسرع الان واخبرنا عن كل شىء ، سبق لوالدى ان اطلعنا على شىء ما ولكننى افهمه جيدا انك تعرفه عندما يكون منفعلا ، فهو لا يحسن التكلم ولا الايضاح ٠٠ تصور ذلك ٠٠ صعد الى غرفتى تلك الليلة حيث لم يستطع النوم ولم أستطع انا النوم ودخل على الحجرة ولكننى كدت لا اعرفه من اول وهلة نظرا للتغير الكبير الذى طرأ عليه وفجأة تقدم من سريرى كان فى حالة من الهستريا المؤلمة ٠٠ وعندما بدأ يقص على ما علئه منك كنت اتطلع اليه نمبهرة لا ادرى بماذا أجيبه ، ظننته يحلم او انا التى كنت احلم ودخلت أيلونا عليفـا فجأة وراحت تسأله عن ألعلاج وعن الطرق الجديدة التى سمع بها :

وسألت أديت :

ـ هيا احكى لى ٠٠ ماذا بك ؟ لماذا تماطل ؟ انك تعرف كـم تهمنى كل كلمة أسمعها منك أخبرنا ماذا قال لك الدكتور ؟

وأعدت عليها السؤال حتى اكسب مزيدأ من الوقت :

وردت على معاتبة :

ــ اجل ماذا قال لك ؟ انك تعرف هذا جيدا ، اراهن ان لديك اقوالا مريحة مطمئنة انه يأمل ان يتوصل الى نتائج مرضية مع مرور الوقت ويقترح اذا لم اكن مخطئة ان يحاول طريقة جديدة للعلاج • انني واثقة بأنه سيبذل كل ما فى وسعه •

لم تتبين مدى عنادى وامتعاضى ام انها علمت منـــه شيئا وتغاضت عنه ولذلك عادت تسألنى :

ــ كنت اعلى ان الطرق المتبعة الان لا تؤدى اى نتيجة •• اننا أدرى الناس بأنفسنا اكثر من اى شخص آخر •• أليس كذلك •• قل لى •• الا تذكر تلك الخطوط الكهربائية الوغمية ؟ انها أمـــور تستلزم صبرا •• ولكن انى لى بالصبر وقد نفذ ؟ ولكن دعنا من ذلك •• هيا واخبرنى عن طريقة ذلك الاستاذ الفرنسى الجديدة •• هل يلزمنا السفر اليه ام بامكاننا الاقتداء بها هنا ؟ اننى اعزف تلك المصحات ولا اظنك تتصـــور مدى الرعب الذى تتركه منظـــر تلك المستشفيات فى نفسى ان على أن •••

ثم اننى لا أحتمل رؤية المرضى •• انى تعبة جدا •• حسنا•• هيا أخبرنا •• تكلم وقل لى كم من الوقت سيستغرق هذا العلاج الجديد أم انه سريع كما يقولون •• قال لى والدى ان نتائجه تظهر خلال ستة أشهر •• ما لى أراك لا تقول شيئا •• هيا •• انطلق تكلم ، متى سيبدأ وكم يلزمه من الوقت ؟

وقلت فى نفسى ان على ان أوقفها عن الكلام يجب الا أتركها تندفع فى ذلك الطريق كما على ايضا ان احول دونها الثقة بالشفاء التام •

يجب ان اتصرف بلباقة •
وقلت لها بهدوء :

ليس بامكان أى طبيب أن يحدد مدة العلاج بالضبط ثم اننى لا أعتقد أن بامكانهم أن يقولوا كم يلزم من الوقت منذ الآن ثم ان الدكتور كوندور لم أتحدث بهذه الطريقة العامة ويظهر ان ما يقصده ان العلاج أعطى نتائج ممتازة •

تبين لى ان اديت لم تعبأ بحديثى لذلك قاطعتنى وهى تقول :

لا يمكنك اذن تتصور مدى ارتياحى الآن يبدو لى بأننى الآن فقط بدأت أعيش •• قمنا برحلة قصيرة الى المدينة هذا الصباح ، ايدهشك ذلك ؟ سأخرج من الآن فصاعدا بمفردى لأتخلص من هذا الانتظار الأحمق ، ان شفقة الناس على لم تعد تثيرنى فى شىء وسأخرج غدا ••

وسترافقنا أنت •• ما لى أراك مندهشا هكذا •• ثم أيلونا هيأت لنا مفاجأة حلوة •• هذا اذا لم •• ثم التفتت الى ايلونا وابتسمت ابتسامة لنا غامزة :

ــ قولى لنا ما هى مفاجأتك ؟

قالت أيلونا :

ــ ليس هناك أسرار بعد الآن أبدا •

ــ اذن اسمع أيها العزيز •• لقد أراد والدى ان نذهب بالسيارة ولكن هذا يجعل الوقت يمر بسرعة وانى اقترح ان نذهب بجولة بعربة الجياد سننهض باكرا وهذا يتطلب منك ان تلبث الليلة هنا •• لا اظنك ترفض متعة كهذه •• سنعطيك غرفة تحت ينزل فيها

من يزورنا من اصدقاء وغيرهم ٠٠ واذا احتجت الى شىء ما نرسل لك بيزيتا لتحضره لك من الثكنة عليك ان لاتعتذر وأن تحقق لى رغبتى لأننا لن نقبل منك أعذارا أبدا ٠

لم تتوقف عن الحديث عند هذا الحد بل استمرت تكمل وتكمل وكنت اصغى اليها مندهشا ومأخوذا فى آن واحد ٠٠ كان صوتها ناعما ورقيقا ٠٠ هادئا ٠٠ فيه شىء من اللذة ويدعوك الى الانصات اليه كنت أقول فى نفسى احيانا ومن يدرى لعلها شفيت او انها تؤمن بالشفاء العاجل ٠

لم أتحسس معنى ما فكرت فيه الا ذلك مساء وانا فى غرفتى عندما تساءلت : أتراننى أبالغ يا ترى فى معتقداتى ٠٠ هل هى آمال معقودة حول العدم ؟ أليس من الأفضل أن نحاول التخفيف من هذه الآمال العارمة ؟ ولكننى طردت أخيرا هذه الفكرة من مخيلتى ، لماذا ترانىى أتساءل دائما اذا ما كنت قد قلت القليل او الكثير فى موضوع كهذا مع أننى وعدت ان أنفذ الكثير ٠ وسررت بكذبتى البيضاء ان اسعاد الانسان ليس شرا أو خطأ ٠

ابتدأت الرحلة المعلن عنها فى الصباح الباكر بدأناها بفرح وسرور اذ ان أول ما سمعت وانا فى غرفتى كانت ضحكات خفيفة خلوة ٠

عندما اقتربنا أخيرا من المحفل الفخم لاحظنا ان المتنزهين كانوا يبدون أقل رزانة مما اعتقدناهم ا ن يكونوا عيله :

ووصلنا الى نهاية رحلتنا الى مربى الخيول قبل الظهر ، وكان هناك استقبال حار فى انتظارنا تقدم منا الخدم فقد سبق لهم وعرفوا

بمقدمنا كان منظرهم جميلا يمتلئون حيوية ونشاطا يرتدون قمصانا تكشف عن صدورهم الواسعة وقبعات تتدلى منها الاشرطة المتعددة الألوان .

تقدموا من الفتاتين بريانهما منزل الدجاج الكبير ولم تتمالك الفتاتان نفسيهما من الضحك امام منظر هذه الطيور الخائفة الفضولية التى لم تعرف كيف تلتهم بعد قطع السكر المنثورة أمامها فى هذه الاثناء كان الخادم يعد مقصفا فخما فى الهواء الطلق وتناولنا مختلف الاطعمة واخذنا نثرثر بحرية بينما انا أفكر بتلك الفتاة الهزيلة الشاحبة وهى تضحك من اعماقها والتى يبدو لى أنها كانت اجمل وأنعم فتاة فى محيط المجتمع المحيط بى أو غير بى على حد سـواء .. لم اكن قد عرفتها حتى ذلك الوقت الا كفتاة مريضة .. يائسة .. وان ذلك الرجل الذى يضحك ويمرح الن سيستدعينى بعد مضى ليلتين من الان لاكون بجانبه ينخره الحزن والاسى لم يكن بى عناء لكى افكر بنفسى .. لا .. اذ اننى كنت احس بالارتياح وحرية كبيرة .

اختار جوناك الخادم طريقا آخر كى نعود الى القصر طريقا طويلا تظلله الاشجار الباسقة . نهار حلو جميل لم نعرف أديت كيف أمضته .. انما كان هناك مفاجأة تنتظرنا عند نهاية المطاف دخلنا الى القرية الصغيرة على حافة الطريق الذى نمر به لم يكن هناك من يسهل مرور عربتنا حتى دخلنا الارض بصعوبة وتناول جوناك سوطه ملوحا به فى الفضاء وهو يصرخ واذا ببعض النسوة يخرجن من بيوتهن مذعورات يركضن ويقلن : ان ابن أغنى فلاحى المنطقة سيتزوج اليوم من افقر وأجمل فتاة هى ابنة أحد جيرانهم ،

وما هى الا دقائق حتى رينا والد العريس يقبل ناحيتنا مهنئا بسلامة الوصول وكأننا من المدعوين •

هل كان يظن بأن السيد كيكسلفافا مر عليه ليزيده شرفا أم انه راح يتقرب منه ويعتز بزيارته كى يزداد رفعة ومقاما امام زملائه المزارعين ؟ واستمر يرحب بنا ويسير جانبنا ويطلب من كيكسلفافا أن يشرب نخب العروسين ونزلنا عند رغبته وأنزلنا أديت من العربة برفق ودخلنا الى القاعة الكبرى وسط المدعوين •

وناولونا كؤوس الانخاب وصاح والد العروس بصحة السيد ولفت هذه الصرخة صدى غريبا فى القاعة ورفع كل المدعوين انخابهم وشربوها فى صحته ، وتقدمت العروس وهى خجلة من أديت وانحنت تقبل يدها ومن ثم انتزعت أديت من يدها خاتما والبسته لها •• كانت اديت تتابع الموكب وعلى فمها ابتسامة رقيقة لا تفارقه •• فجأة شعرت بيدها تلامس ذراعى •• ارقص •• ولحسن الحظ لم تكن العروسة قد بدأت الرقص بعد •• فهى لا زالت تنطلع الى مندعشة الى الخاتم الذى يزين اصبعها •• وعندما انحنيت أمامها توردت خجلا وزهوا بالشرف الذى ستحصل عليه بمراقصتى ثم اندفعنا نرقص •

وهذا مما شجع العريس فتقدم من أيلونا وطلب اليها ان تشاركه الرقص أيضا •

لا أعتقد انه قد سبق لهذه القرية وحضرت حفلة رقص كهذه •

وجاءت نهاية النهار كانت تخبىء لنا مفاجأة ثانية فقد تقدمت احدى الساحرات بعد أن رات الهدية تتقدمت من أديت وطلبت اليها ان تكشف لها عن خبايا المستقبل ، بدت الفتاة منزعجة بالرغم من

وشعر فتود ان تتقبل كل ما تراه أمامك أو يقع عليه بصرك .

وصلت الى الثكنة ووجدت أحد مساعدى ينتظرنى وهو يحمل فى يده برقية تخصنى وقال :

لقد وصلتك برقية سيدى الكولونيل .

ـــ برقية ؟ وأخذتها من الرجل وفضضتها بسرعة وقرات :

دعانى كيكسلفافا .. أود أن اتكلم اليك قبلا ، سانتظرك فى المقهى .. كوندور ..

وقبل الوعد المحدد وجدتنى امام المقهى بانتظار الدكتور وفى موعده المحدد وصل وقال :

ـــ رائع أن أجدك هنا ، كنت اعلم انه بامكانى ان اعتمد عليك هيا بنا الى الداخل ، كان يبدو لى فى هذه المرة غريبا عما قبل سبقنى الى الداخل وطلب الى الخادمة مشروبين وجلسنا الى الطاولة وفى الحال دبأ حديثه :

ـــ اليك المسألة باختصار ، تلقيت برقية مستعجلة تطلب منى الذهاب اليه بسرعة فاكلل على حد قوله بانتظارى على أحر من الجمر ، فالكل يعترفون بجميلى لم تكن كل هذه المجاملات تسرني لماذا كل هذا الاعتراف بالجميل الخاص ؟ لم اهتم بالبرقية ولم أعد لاعرها أدنى إهتمام انما أردت ان أعرف لماذا يلح على هذا المجنون بلقائه ولكن رسالة البارحة جعلتنى أشك فى الموضوع كانت الرسالة مطولة جدا ومن اديت بالذات تقول فيها اننى الرجل الوحيد الذى يستطيع خلاصها فى هذا العالم ، كتبت تقول لى بأنها ترجونى أيضا أن أباشر بالعلاج الجديد اذ انها مستعدة تماما للخضوع له :

ومن هنا عرفت ان هناك من حدثها عن علاج البروفيسور فتأكد لى ان الذى حدثها به لم يكن سواك أنت عزيزى الكولونيل .

قمت بحركة لا شعورية ولكنه لم يدعنى اكمل ، بل تابع كلامه :
ليس هناك اختلاف حول هذه القضية انك المسئول الوحيد عن اعتقادهم بأن الشفاء سيكون ممكنا بعد بضعة شهور ، انما علينا تفادى الاتهامات الغير مجدية ، لقد تكلمت معك وتحدثت أنت للاخرين ، كان على ان أكون اكثر لباقة ، انما ان تعيش مع المرضى ليس من مهامك ، كيف تعلم اذن ان هؤلاء ومن يحيط بهم لهم طريقة كلامية خاصة ، وان كلمة ربما تعنى أكيد كما ان علينا تزويدهم بالامل خطوة خطوة والا استفحل اليأس معهم وجعلهم مجانين .

لم اضرب لك موعدا للثرثرة والعتاب انما شعرت بأن على أن اشرح لك القضية ما دمت فيها وتعانى من مأساتها مع من يعانون .
كف كوندور عن الحديث ثم رفع رأسه وحدق بى مليا ولم ألمح اى أثر للقساوة فى نظره ، بل قرأت فيهما انه يشفق على فقط ، ولذلك بدأ حديثه اكثر رقة :

ـــ اننى أدرك يا عزيزى بأن ما حدث الان يؤثر فى أعماقك . انما ليس لدينا وقت للعواطف ، لقد أخبرتك سابقا بأننى ما أن قرأت المجلة الطبية للدكتور فينوم حتى أخبرتك وتسلمت البارحة خطابا يخبرنى فيه فينوم بأن نتائج اختباراته كانت مرضية بالنسبة لمرضى كثيرين أما علاجه الحالى فلا ينطبق على حالتنا وهنا تكمن المأساة الكبرى أن غالبية معالجاته تنطبق على المصابين بالنخاع الشوكى أما حالتنا هذه فهى فى الجهاز العصبى هذا ما كان يجب على أن أقوله لك .

هكذا عرض على كوندور القضية جملة وتفصيلا ولكننى وجدت نفسى غير كفؤ لتحمل المسئولية انما وجدتنى أتمتم بكلمات غير مفهومة كطفل صغير أخذ على حين غرة :

ــ ولكن اذا كنت قلت شيئا لكيكسلفافا انما كان ذلك بطريقة ،

قال كوندور مقاطعا :

ــ اعرف ، أعرف ، انك لم تخلق الا للرحمة ، انما أظن نفسى قد نبهتك وأظنك انت تقدر الانزعاج الذى سببه ضعفك .

ــ أجل وانما لا نستطيع ولا بأى حال من الاحوال ترك الانسان وحيدا فى بأسه فالشر لا يجرب .

وتغيرت لهجة كوندور واحتد فجأة :

ــ أجل كثير من الشر اجد من الافضل ان يعانى الانسان من أمراضه وآلامه المبرحة على ان ينقاد اليك وتشفق عليه ، لا يجب التلاعب بعواطف الاخرين .

كان يتكلم وصوته مملوء بالمرارة والاسى ، وفجأة تذكرت كلمات كيكسلفافا وما قال له :

ــ عندما عرفت كوندور بأنه لا يستطيع شفاء مريضه تزوجها بالرغم من أنها عمياء .. ولكن هذه لم تعترف بجميله وما زالت تعذبه حتى الان ..

وفجأة وضع كوندور يده فوق ذراعى وقال :

ــ اننى لا احدثك عن ذلك بسوء نية ، لا ، فقد خدعتك عاطفتك أن ذلك يحدث عادة لغالبية الناس ، اننى اشعر براحة تامة

لو تركت كل شيء على عاتقك ، انك تعرف العجوز وعناده ، حتى ولو اننى شرحت له مائة مرة فحوى ما جاء فى رسالة البروفيسور فينوم ، فهو لا يكف عن التباكى ويقول ٠٠ ولكنك وعدت الكولونيل أن علينا ان نعمل على تبديد هذه الامال الخاطئة ومن أجل هذا يجب علينا أن نعمل وبدون اضاعة الوقت ٠

توقف كوندور عن الكلام ، لقد كان ينتظر اجابتى . انما لم تستطع عيناه أن تقعا على عينى ، كان علينا أن نبدد كل شيء بضربة واحدة ٠٠ كان علينا أن نعيد المريضة الى حالتها السابقة أن نرمى فى الجحيم كل ما هو وسواس وألم ٠٠

وقلت لمحدثى :

ــ ولكننا لا نستطيع ٠٠

ثم توقفت عن الكلام ٠٠

وسألنى بصوت حاد :

ــ تستطيع ماذا ؟

ننتظر لنقول لهم هذا ثم ما رايك لو تركناهم يعيشون بالامل وندع هذا يستمر هكذا حتى نهايته ٠

أخفضت صوتى لاننى لاحظته يتفحصنى بتمعن ٠

وتوقف كوندور عن تفحصى وقال :

ــ فكر مطولا فيما ستتوغل فيه ٠٠ يجب ان تملك الشجاعة الكافية لتعيد الثقة الى انسان سبق لنا أن خدعناه ٠٠ هل بامكانى الاعتماد عليك ؟ ٠٠

قلت : تماما ..

أجاب وهو يبعد كأس شرابه .

ـ حسنا . آمل ان يسير كل شيء فى الطريق القويم والان سأقول لك الى أى مدى سأذهب ولا خطوة واحدة خلاف الحقيقة ، سأشرح لهم كل شيء واطلعهم على ما لم يعرفوه أما اذا اصروا وتمسكوا بأقوالك فان المسألة تتعلق بك الان مبدئيا وشكليا كى تعيد الامور الى نصابها .

ثم وقف فجأة وهو يردد :

أعتبر ان المسألة قد سويت الان .

تركنا المقهى وخرجنا الى حيث كانت العربة تنتظر ، وما ان صعد حتى هممت أن اناديه وأقول له شيئا ، ولكننى عدلت عن ذلك وتابعت طريقى .

وبعد مضى ثلاث ساعات وجدتنى فى الثكنة اقرأ البرقية التالية :

تعال غدا ، لدينا أشياء كثيرة نرغب أن نقولها لك ، لقد غادرنا الدكتور اليوم سنذهب بعد عشرة أيام ، اننى بغاية السرور .. اديت .

كان كل شيء على ما يرام فى منزل كيكسلفافا فأحضرت معى باقة من الزهور خصيصا كى أعطيها لاديت ، وقابلتها وراحت تحدثنى بدون انقطاع :

كان صوتها مؤثرا حتى اننى شعرت به يجرح ضميرى ، ولذلك حاولت أن أغير مجرى الحديث فيصبح كلاما مزاحا ، فقلت :

ـ هل تعرفين الخيالة ؟

فقالت :

ـ نعم .. ان أروع فترة للركوب هى شهر الربيع ، فعندما يكون الطقس مثاليا لممارسة ذلك .

وقلت لها :

ـ أجل ، يبدو أنك تعلمين هذا جيدا .

وقالت مقاطعة اياى :

ـ متى تأتى ؟

لم أفقه ما ترمى أليه وقلت ببراءة :

ـ أين ذلك ؟

وقالت هى :

ـ لا تلقى أسئلة بهذه الحماقة

ـ اننى أسأل حقا .

ـ اذن تأتى لتزورنى فى الانفادين

لم تعاودنى فكرة السفر هذه ولم تخطر ببالى على الاطلاق وقلت :

ـ أجل فهمت الان وضحكت ثم قلت :

اود أن اعرف منكم ايها المدنيون كيف تتصورونا نحن العسكريون لا يا عزيزتى أديث . انك تتصورين ان الامور سهلة جدا وقريبة المنال .

وقالت لى :

ــ ان كل شىء يبدو سهلا عندما ترغب فى تحقيقه ، لا نتصرف وكأنك انسان لا يمكن الاستغناء عنه • اما ما تبقى بالنسبة للاجازة فان والدى سيرتب كل شىء فى مدة لا تتجاوز النصف ساعة انه يعرف اناسا كثيرين فى وزارة الحربية وبكلمة واحدة منهم يمكنك ان تحصل على كل ما ترغب •

التزمت طريقة لازاح طيلة حديثها ثم قالت :

ــ حسنا ستكون العطلة فى سويسرا ، ولكن هل لديك فكرة عما تتكلفه رحلة كهذه يا أديث ؟

تململت وكأنها شعرت بأننى أعنى شيئا فى حديثى •

ــ أهذا ما عنيته انه لا يتعدى الارقام البسيطة وبعيد كل البعد عن الحسابات الخيالية التى تفكر بها ؟

لم أعد استطيع ان أبدد استيائى هذه المرة • لقد أصابت الشعور وجرحت الاحاسيس ، لم أكن املك مليما كثروة شخصية ، كل ذلك يجرح كبريائى وهــم يتكلمون امامى باحتقار عن المــال والثروة ، هناك كان يكمن شللى وهناك كنت احتاج الى عكازين اكثر مما تحتاج هى ودون أن أدرى شعرت بأننى أصبحت فظــا لا يطاق •

وقلت بعصبية واضحة :

بدون شك ، لا انما أظنها لا تتعدى بضع مئات من الكورونا شىء زهيد • ولذلك يبدو لك أن الحديث فيه لا يستحق الاهتمام •••

أليس كذلك ؟ هل سبق لك لأتساءلت كيف يتصرف ضابط مثلى ؟
لا دون شـــك ٠

حاولت ان أخبرها عن فقرى المدقع بينما كانت تتأملنى وتتطلع الى بحماقة واستغراب ، شعرت بموجة من الفرح العارم تجتاحنى وكدت أن أشرح لها معنى وجودى ٠

ــ هل تدرجين ما يربحه الضابط ؟ هل فكرت بذلك يوما ما ؟ وهنا أود ان تعرفى فأصرح لك انه يتقاضى مبلغا ليس كبيرا عليه أن يدفع منه ثمنا لطعامه وشرابه ويواجه به الواجبات التى تقتضيها رتبته ، هذا اذا لم يحدث له أن يصيبه مرض ما ٠

تبين لى فيما بعد مدى الطلاقة المرة التى كنت اتحدث بها عن أمورى الشخصية كيف يمكن لفتاة لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ان تمضى وقتها كله فوق مقعدها المتحرك كيف يمكنها ان تحسب للمال حسابا وتقدر قيمته أو تفكر بتعاستنا الذهنية ، انمـــا تملكنى حب الانتقام والتشفى من الاهانات التى كنت قد لاقيتها ٠

وما أن رفعت ناظرى فتطلعت اليها حتى تبين لى مدى عمـــق قساوتى ٠ اعتراها خجل شديد ثم تطلعت الى وقالت :

ــ وتجرؤ ان تشترى لى زهورا غالية الثمن كهذه ؟

ــ كانت فترة أليمة استغرقت لمدة طويلة ، كان كل منا يشعر بالخجل امام رفيقه ، جرحنا أحاسيس بعضنا البعض دون أن نريد ذلك وبتنا نخاف أن يتلفظ اى منا بكلمة واحدة ٠ وفجأة سمعنا صفير الرياح بين الاشجار وفى البعيد البعيد صوت محرك سيارة يبتعد ٠

وقالت اديت :

ـ كنت مجنونة كبيرة عندما أصغيت لكل ما قلته ولا زال ذلك يثير رعبى حتى الان ، ماذا يعنى بالنسبة اليك سفرا ورحلة ؟ اذا أتيت لزيارتنا ستحل علينا كضيف وحسب ·· هل خطر لك انه لو قبل والدى زيارتك لنا انه سيدعك تتكبد اى مصروف اذن لندع هذا ولا نعود اليه مطلقا كما انني لا أحب ان اسمع اية كلمة أخــرى حول هذا الموضوع ولكننى لم اكن لاخضع ، اذ لم يكن هناك مايزعجنى كاتباري أنسانا يعيش يعيش على هامش الامور ، لذلك قلت :

ـ بلى ، كلمة أخيرة أود أن اقولها لك ، يجب الا يكون بيننا

سوء تفاهم ، ولذلك اصرح لك بكل وضوح لا أود أن تطلبوا شيئا من رؤسائى ، اننى غير مستعد لاستجداء الاحسان مهما كان نوعه ، وأرفض كل حماية ، أريد ان أعامل كزملائى ، لا أريد ان ارتبط بشىء او اتدخل بشىء ·· اننى اعلم بأنك انت وابيك تملكون من الافكار الجيدة ، لا بل ألاكثر اجادة فى العالم كله ، لكن هناك كثيرون لا يرغبون بأن تهبط عليهم الاشياء من السماء بسهولة ·

وقالت بغضب :

ـ وهكذا ترفض أن تأتى ؟

وشرحت لها :

لم أقل هذا ، بل لقد شرحت لك الاسباب التى تمنعنى من

الحضور اليك ، وعلقت هى قائلة :

ـ وحتى لو طلب والدى اليك ؟

ـ وحتى فى هذه الحالة ٠

ـ ولو رجوتك من كل قلبى ، وبصدق واخلاص ،

ـ أرجوك لا تفعلى ذلك فان النتيجة معروفة مسبقا ، الرفض ٠

أحنت راسها ولم تقل شيئا انما لاحظت فمها يرتجف وذلك يدل على الانزعاج النفسى الذى بدأت تعانى منه ؛ ان هذه الصبية التى يكفيها أن تتفوه بكلمة واحدة لتضع البيت فى امرتها ، تصدم الان بمقاومة كهذه ، انها تجد من يسيطر عليها ، ومن يقول لها : لا ، للمرة الاولى فى حياتها ، وهذا ما أفقدها السيطرة على نفسها ، وفجأة تناولت أزهارى من فوق المائدة وألقتها على الارض ثم داستها ٠

وقالت :

ـ اذن سوى الامر ورفضت ، سوف لا تزورنا ولا تأتى الى البيت ان ذلك لا يلائمك أبدا ، ولكن هناك مسألة سأسالك عنها واريدك أن تجيبنى بصراحة ٠

ـ أكيد ٠

ـ بكل تأكيد ، بشرفك ، اذن أقسم ٠

ـ اذا كنت تصرين ، سأقسم :

حسنا لا تخاف سوف لا أصر على زيارتك لى ولكننى ارغب فى ان اعلم شيئا واحدا فقط ، مازلت ترفض أن تأتى معنا لان اشغالك تمنعك ، فلماذا تأتى الينا دائما ؟

كنت انتظر كل شيء باستثناء هذا ولذلك رحت أتمتم وأنا فى

حيرة من أمرى محاولا أن اكسب الوقت •

— ولكن ، ولكن ، نهى مسألة بسيطة وان ذلك لا يستوجب القســـم •

— سهل وبمنتهى البساطة ، أجل ، هيا اذن •

لم تكن هناك طريقة للتخلص ووجدت ان أسهل الامور واشرفها هو قول الحقيقة ، انما كان على ان أقولها بعبارة غائمة ، وهكذا ابتدأت فقات :

لا تندهشى عندى يا آنستى العزيزة أديت عن أسباب مجهولة ، انك تعرفين جيدا كى تتأكدى من أننى لست الرجل الذى تحاك القصص من حــوله كثيرا ، لم أفكر يــوما ما لمــاذا ازوركم اننى لا استطيع أن اقول اكثر من هذا • أتردد عندكم لاننى أشعر براحة تامة هنا اكثر من اى مكان آخر •• يعاودنى وانا فى بيتكم شعور الـــ ••

وتوقفت هنا تلقائيا •

— أى شعور ؟ قالت بالحاح •

— أشعر بأنى قرب شخص أسر به واستانس اليه اكثر من اى انسان آخر ، اعرف ذلك جيدا ، وكثيرا ما أتساءل هل تريدننى قربك ام هل يزعجك هذا اكثر مما يفرحك وكلما وجدتك هنا وفى غرفتك تهنأ نفسى على المجىء اليكم ، وأود أن لا أتركك طيلة النهار •

توقفت العيون الرمادية عن التحرك واستقرت تتطلع الى ، وراحت الاصابع العصبية تضرب ذراع الكرسى على مهل بطيئة فى

ولعله من ألافضل ان ارسل السائق الى الثكنة كي يأتيك بثياب جديدة بدلا من هذه ٠

كان الخادم يوجه هذه الملاحظات كشخص حيادى لا دخل له فى الموضوع قطعيا ولكننى لحظته مرتبكا وفى كلامه رعب وخوف وقال :

انني متأكد من ان الانسة أيلونا ستحزن كثيرا ، انها تقوم بخدمتها الان وتخفف عنها كما انها كلفتنى كي انقل لك بأنها ستأتى الى هنا بعد قليل وترجو ان تنتظرها ٠

تأثرت جدا عندما عرفت كم يحبون تلك الفتاة المريضة ٠٠ أنهم يصفحون عن كل شيء ويدللونها قدر المستطاع ، لا بل أكثر نويت أن اقول بعض الكلمات الطيبة لهذا الكهل الصالح ولكننى اكتفيت بأن ربت على كتفه وهمست :

دع هذا يا عزيزى جوزيف لا تزعج نفسك سيجف كل شيء تلقائيا اعتن انت بالاوانى الحطمة وسأنتظر انا أيلونا ٠

ان هذا ليسرنى ، أن يوافق سيدى الكولونيل على الانتظار ، كما أن السيد كيكسلفافا سيعود قريبا وسيسر بانضمامه اليكم ٠

أتت ايلونا ولم ترفع عينيها الى ٠٠ بل نظرت الى الارض واقتربت منى وقالت :

ــ ان أديت ترجوك ان تنزل الى غرفتها ولو دقيقة واحدة ، مجرد برهة قصيرة انها تلح وترجوك ٠

نزلنا الدرج سويا ولم تنبس ببنت شفة وما أن وصلنا الى الباب حتى همست أيلونا تقول :

ــ عليك أن تكون لطيفا معها الان ، لست أدرى ماذا حدث

البدء وبعصبية فيما بعد واذا بها تصرخ فى شراسة :

ــ اجل ، افهم ، اننى أدرك الان تمام الادراك ما تريد ان تقوله ، اظنك الان قلت الحقيقة ، وقد أفصحت عن ذلك بطريقـــة ماهرة ومهذبة ولكننى فهمتك مع ذلك انك تأتينى خوفا من كونى وحيدة وعسمورة الى هذا المقعد لا أفارقه ومن أجل هذا فقط تزورنا كل يوم كأحد الواعظين يزور مريضته المسكينة ، انك هكذا تدعونى عندما تأتى ولا تجدنى ، لماذا تحاول أن تفكر ؟ أتشفق على ؟ ألست ذلك الرجل الصالح الذى يرتعش قلبه لرؤية كلب مقتول ؟ وأليس الحال وهو نفسه بالنسبة لفتاة مقعدة ؟ كان جسمها النحيل يرتعش وكأنها أصيبت بحمى مفاجئة ، انما تابعت :

ــ شكرا لله ٠٠ انى لا أعير أى اهتمام لهذه الصراحة المرتبطة

بمرضى ، أجل ، لا تغمز بعينيك ولا تحزن لقد قلت الحقيقة ، أو لانك تأتى لزيارتنا ، اقتربى وحسب سأتدبر نفسى بنفسى دون أن ألجأ اليك ، وعندما آمل أعرف كيف أتخلص منك ٠ أنظر :

ومدت يدها نحوى ورأيت آثار جرح كبير ، وأكملت :

ــ لكننى لم أحسن الوصول الى النهاية لقد وصلوا الى فى الوقت المناسب وضمدوا جراحى ، اننى أفضل الموت على أن اكون الفتاة التى يشفق عليها أحد والموت عندى اهون من رأفة الناس ٠ واذا بها تقف فجأة وتندفع الى الامام ثم تهوى من فوق مقعدها ٠

ــ أظن هذا يكفى دقيقة أخرى وينتهى الامر وارتاح من رحمتك العوبة ، ثم تنعزون جميعا ، انت وايلونا ، وحتى ابى أيضـــا

ستتخلصون من التى تعتبرونها عارا كبيرا عليكم :

قفزت من مكانى عندما رأيتها تتهاوى وأخذتها بين ذراعى وكأن نارا حامية قد مستها فصرخت وهى تحاول الخلاص منى :

ـ دعنى ، كيف تجرؤ أن تلمسنى انسحب اننى أتصرف كيفما اشاء ، ابتعد واياك ان تقترب منى مرة أخرى •

لم أبتعد عنها كما أرادت بل رحت أحاول كى ابعدها عن هذا المكان الخطر ولكنها لم ترتدع ، بل لكمتنى فى صدرى بقبضة يدها ثم قالت :

ـ اليك عنى أيهـا المتوحش انصرف واياك العودة هنـا ثانيـة •

ثم أعملت يديها تحاول النهوض دون الاستعانة بى ، وكلما اقتربت منها محاولا أن أساعدها كانت تنطوى على نفسها وتصرخ كالهرة الشرسة :

ـ اذهب ولا تلمسنى •

وفجأة وصل المصعد وتقدم منا الخادم فحمل الفتاة دون أن يتطلع الى وأنزلها الى غرفتها وبقيت أنا أتأمل الاوانى المحطمة وما تركته العاصفة بعد مرورها • لست أدرى كم بقيت من الوقت شاردا حائرا دون ان اجد الدليل القاطع لهذا الانفجار المفاجىء •

ـ عفوا أيها الكولونيل ، هل تسمح لى بأن أمسح ثيابك المبللة ؟

عندئذ فقد تنبهت لوجودى •

بينكما فوق ، ولكننى أعرف ثورتها وانفجارها ، الكل هنا يعرفون هذا يجب الا تغضب منها ، كما انه لا يمكننا ان نتصور مدى الالم الذى يقاسيه انسان سمر من الصباح حتى المساء فوق مقعد ٠

لم اقل لك شيئا ، اذ لم يكن ذلك ضروريا ، لان أيلونا لاحظت انفعالى ، قرعت الباب بهدوء فأتاها الجواب شبه مسموع ، ادخل ، ثم عادت تهمس :

ـ لا تمكث وقتا طويلا ٠

دخلت دون أن أحدث ضجة ، تطلعت فى الغرفة فلم اجد شيئا واذا بصوت خافت يأتينى من الحديقة ويقول :

ـ هنا ، فوق هذا المقعد ، سوف لا أحتجزك طويلا ٠

اقتربت ، وبفضول انتظرت أديت منى أن أجلس ، ثم قالت بارتباك :

ـ اعذرنى ان كنت قد استقبلتك هنا ، ولكن صداعا الم بى وأجبرنى على ذلك ٠

ـ ماذا تقولين ، انها غلطتى ، كان على أن ٠٠

ـ أكيد ، الا تحقد على اذن ؟

ـ أبدا ٠٠

ـ وستعود الينا كما هى الحال ألان ؟

ـ تماما ولكن بشرط واحد ٠

ـ أى شرط ؟

ان يكون لك ثقة أقوى ولا ترتابى البتة حول اهانتى كيف

تريدين أن نفسر هذه الامور الصبيانية فيما بين الاصدقاء ؟ كنت أود ان اراك اليوم كما رأيتك بالامس منشرحة ، لقد فكرت بك طيلة المساء .

— تقول فكرت بى .. طيلة المساء ؟

وتطلعت الى كمن يشك فى صدق كلامى .

— أجل .. طيلة المساء... يالها من أمسية رائعة لا انساها أبدا ويالها من نزهة ممتازة هى الاخرة .

— أجل .. ممتازة .. أجابت ذلك وهى شاردة ، واستطردت :

— على أن أخرج دائما ولكننى أبدو فى الاحيان خجولة لا أجرؤ على القيام بشىء اذ اننى أتصور الناس يتطلعون الى عكازاتى مشفقين وهذا ما أكرهه ، ليت هذه الحالة لن تجعلنى بائسة هكذا تقترب من نهايتها وتريحنى الى ابد الابدين .

— ستنجين عما قريب .. انما عليك التمسك بالشجاعة والصبر لمدة قليلة فقط .. ورفعت هامتها قليلا ثم قالت :

— هل تعتقد فعلا ان العلاج الجديد سيشفينى ؟ كنت أثق بالدكتور كوندور ثقة كبيرة ولكننى — وأعلم أنه ليس من يعلم بهذا سواك — شعرت أمس وبينما كان يفحصنى انه يقوم بدور الممثل الكوميدى ظهر لى انه غير أكيد من عمله ، ولم ألمس فيه تلك الصراحة التى عهدتها فيه دائما ، كنت فى ذروة السعادة يوم سمعت انه ينوى ارسالى الى سويسرا انما هذا لم يبدد الخوف المتأصل فى حنايا ضلوعى انما أرجوك أن لا تحادثه بشىء من هذا اذا ما حدث واجتمعت اليه ثانية ، ثم اياك أن تفكر بحق السماء أن العلاج الجديد سوف لا يأتى ثماره عاجلا ، وكأنه وجد ليطمئن أبى وحسب ثم ماذا ترانى

صانعة أمام هذا ؟ كيف لا تريدنى ان اكون مترددة وأشك بنفسى وبالاخرين عندما اخبرتنى اننا سننتهى من العلاج فى اقرب وقت ممكن ٠٠ لا ٠٠ فأنا لا أستطيع احتمال هذا الانتظار اللانهائى ٠٠

ــ عليك ألا تغضبى وتذكرى ما سبق ووعدتينى به ٠

ــ أجل انك محق ، ولا أظن أن هذا سيجدى نفعا ٠٠ عندما نتألم سيتألم الاخرون لألمنا ، ولكن قل لى بربك ، ماذا يستطيعون ازاء هذا على كل لا أريد التحدث بهذا أبدا ولا أريد ان أشكرك لتحملك ثورتى وغضبى منذ لحظات ، فأنت تبرهن عن طيبة قلب تجاهى ولم يسبق أن وجدت لديك ما يثير مخاوفى ، ومرة ثانية ارجو الا نعود الى مثل هذا الحديث مطلقا ٠

ــ وهو كذلك ، كونى واثقة ، والان أرجوك أن ترتاحى ٠

نهضت ومددت يدى لها مصافحا ، كان منظرها مؤثرا بينما استمرت مستلقية تبتسم لى ورأسها فوق الوسادة البيضاء وفجأة ارتعشت وسألت :

ــ يا الهى ماذا حل بملابسك ؟

لقد شاهدت البقع المنتشرة فوق ثيابى ولكننى لم أدعها تتمادى بالحديث اذ اختصرت مجيبا ٠

ــ لا شىء مهم ، لقد لطخها صبى شقى عندما أوقع كوب الماء الذى يحمله من يده ٠

ــ وأظنك قد أحسنت تأديبه ؟

لم أجد ذلك ضروريا ، بل لقد تقدم منى يطلب السماح انما عليه ان يكون اكثر تأدبا فى المستقبل وأكثر انتباها ٠

ماذا يترتب عليه أن يفعل ؟

ـ أن يتحلى بالصبر ، أن يكون لطيفا ومرحا ، أن لا يبقى طويلا بالشمس وأن ينفذ أوامر الطبيب ، والان عليه أن يسكت ويخلد الى النوم .. تصبحين على خير .

غادرتها وقلبي مطمئن ، وما أن اقتربت من باب الحجرة حتى سمعتها تضحك وتقـول :

ـ تماما سينـال أعلى الدرجات ، انما عليه ان ينام الان .

فتحت الباب نصف فتحة وحاولت أن اخرج واذ بها تستوقفني ضاحكة وتسأل :

ـ ماذا يعطون الولد الشقى عندما ينام ؟

ـ قولى أنت ماذا يعطونه ؟

ـ انهم يقبلونه ..

تملكني شعور مزعج أمام هذا الطلب المفاجيء .. اذ كان في صوتها شيء من الشهوة لم .. يعجبني أبدا ، ولمعت عيناها بحمى الحب الجارف ، ومع ذلك لم أرد ان أخالفها .

ـ بكل سرور .. انما أرجو المعذرة .. اذ نسيت ماذا يتوجب على أن افعل .

واقتربت منها ومررت بشفتي على وجهها واذا بها ترفع يدها وتأخذ رأسي ثم اذابها تشدني اليها وتطبق بفمها تلتهم شفتاى بعنف وقسـوة .

لم يسبق لى أن ذقت قبلة بهذا الطعم الوحشى لم يكن هذا ليكفى بل ظلت ممسكة بى تشدنى اليها بقوة وحزم وفجأة تراخت يداها وابتعدت عنى تعبث بشعرها .. استمر هذا لحظة وعاودته الكرة بحماس يفوق أى حماس وراحت تقبل كل قمة من وجهى ويدى

وما أن تتركنى برهة حتى تعود ثانية اقوى واشد شهوة ، وأخيرا تركتنى وألقت برأسها فوق الوسادة وهى تردد :

ــ والان ·· اذهب يا حبيبى ·· اذهب يا حياتى ·· وبقية الامل المتبقى لى ··

عبرت الممر مسرعا كى لا يرانى الاب والاخت كنت أخاف أمر الفضيحة ولذلك قلت فى نفسى : هيا على ان أهرب قبل أن يفتضح أمـــرى ·

ــ لم أوفق بذلك لقد سبق السيف العــذل وهاهى أيلونا تلتقى بى وتقول :

ــ مالى أراك شاحب الوجه هكذا ، هل حدث خلاف بينكما مرة أخرى ؟

تمتمت مجيبا :

ــ ابدا لا شىء ·· اعذرينى اذا انصرفت الان أشعر بتعب خفيف ·

كان فى صوتى ما ينم عن ارتباكى واذا بايلونا تأخذنى مــن ذراعى وتدفعنى الى أريكة قائلة :

اجلس ، واستعد أنفاسك سأذهب لاحضار شىء نشربه ·

وعادت وهى تحمل شرابا وناولتنى كاسا منه ·

ثم جلست بجانبى ولم تقل شيئا بل اكتفت ما بين لحظة وأخرى أن تنظر الى ، وأخيرا سألتنى :

ــ هل قالت لك اديت شيئا يخصك أنت شخصيا ؟

تمتمت بارتباك :

ــ نعـــم ·

— لم تبدى اية حركة ، بل انحنت وقالت :

— والان .. الان فقط تنبهت الى ما قالته لك .

— كيف تريديننى أن أفترض شيئا كهذا ؟ شىء مبهم ، جنون، كيف خطر ببالها أن تفكر بى ؟

وتنهدت أيلونا ثم أجابت :

— يا الهى ، وهى التى كانت تفكر دائما انك تأتى الينا اكراما لها ومن أجلها لم أصدق مطلقا أن يحدث شىء كهذا منذ البداية وأنا اظن بأن ذلك لم يكن سوى رحمة منك وعطفا ، انها تعيش منذ أسابيع تغذى هذه الفكرة .. وعندما طلبت منها أن تهدىء روعها سألتنى اذا كنت أعرف انك تحبها .

لم أستطع ان أتمالك نفسى لمدة أطول :

— لا يجب أن تنزعى هذه الفكرة من مخيلتها ، انه جنون وعبث صبيانى ، عليك أن تشرحى لها هذا مطولا .

هزت أيلونا رأسها واجابت بأسى :

— لا ايها الصديق .. ان أديت لا تمزح فى مثل هذه الامـــور وهى تأخذ هذه القضية جادة ، يؤسفنى أن لا البى طلبك لاننى أعجز عن تذليل صعاب كهذه . آه لو عرفت ماذا يحدث فى هذا البيت ، تقرع الجرس بدون شفقة مرتين وثلاث فى ساعة متأخرة من الليل وما أن أجلس بجانبها حتى تعود فتسألنى نفس السؤال هل تظنين ان بأمكانه ان يحبنى ولو قليلا ، فهذا القليل يكفينى ولا أرغب فى المزيد ، كما أننى لست ببشعة الى درجة تجعله ينفر منى .. اليس كذلك يا ايلونا ؟ ثم تطلب منى أن آتيها بكأس من المثلجات وما أن احضره حتى ترميه على الأرض .. وما أن تمر ساعة على هذا حتى

تكرر نفس الشىء مرة أخرى وأظنك تذكر قصة الساحرة يوم التقينا بها ليلة العرس ، لقد كتبت رسائل مطولة جدا ومزقتها ثم إعادت كتابتها ومزقتها من الصباح الباكر حتى آخر الليل لا تفكر الا بأمور كهذه طلبت الى يوما أن أزورك وأسألك اذا كنت تحبها أم لا ٠٠ او اذا كانت تزعجك لانك لا تحادثها حديث الحب أبدا ٠٠ كان على أن أذهب لقائك بسرعة ولذلك طلبنا الى السائق ان يعد العربة ، كانت تعيد امامى مرتين وثلاث واربع كل كلمة من التى سأقولها لك سينتهى كل شىء بالنسبة اليك ، عندما تتركها وراءك وتغلق الباب عليها ، أما هى من هنا تبدأ تساؤلاتها ، ستدعونى اليها بعد قليل لتسألنى: واذا قلت لها انك تحبها تصرخ بى قائلة : انــك تكذبين ٠٠ انــك تكذبين ٠٠ لم يقبل لى ولو كلمة حلوة واحدة ٠٠ ومع ذلك تريدنى أن أراجع ذلك وأحلف لها مئات المرات ، ووالدها لقد تغير كثيرا ٠٠ فهو يحبك اكثر من ابنه ويتخذك كمثل أعلى فى الحياة ٠٠ آه لو رأيته وهو يجلس بقرب سريرها يواسيها ويخفف عنها وأنت بربك ألم تلاحظ شيئا من هذا ؟

ــ لا ٠٠ لا ٠٠ أحلفك ٠٠ ألم شيئا اقسم لك ٠٠٠ ان ذلك لمستحيل ٠٠ كما أنك تجهلين ماذا حدث الان فى الغرفة ، لقد تصرفت باحتقار وأنا الذى لم يحمل لها الا الشفقة والاخوة ٠

سكتت أيلونا واستمرت تتطلع أمامها شاردة ثــم تنهــدت وقالت :

ــ أجل ، هذا ما توقعته قبلا ، وها هو يحدث الان ولا أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك ٠ كنا نجلس صامتين وقد قلنا ما عندنا من كلام ، وها نحن الان أمام مأزق لا نعرف كيف نخرج منه بحل يرضى الطرفين ٠

سمعنا ضجيج سيارة تقترب من المنزل فنهضت أيلونا وقالت :

ـ هاهو والدى أنى يجب الا تلقاه الان ، انك تبدو فى حالة عصبية مرهقة .. سآتيك بخوذتك وسيفك وستخرج من الباب الذى يفضى الى الحديقة العامة وسأختلق الاعذار لك وأخبره انـك لم تستطع أن تمضى السهرة معنا ..

قفزت أيلونا مسرعة تبحث عن حاجياتى وللمرة الثانية تسللت كاللص وخرجت خلسة .

كنت أعتقد حتى ذلك الحين ان أشد أنواع العذاب هو الحب الغير متبادل ، ولكن تبين لى أن هناك ما هو أشد وأصعب ، أن تحب رغم ارادتك وعندما تحاول الدفاع عن نفسك لا تستطيع ان الذى يحب ويشقى بحبه يمكنه ترويض غرامه لانه ليس هو فقط الذى يتألم، بل هو الشخص الذى يخلقه الالم ليسيطر عليه ويعمل فيه أما اذا لم يتوصل الى ذلك فيكون المه أقل وعلى كل الوجهين نتيجة لخطأ . وعندما تحاول المرأة أن تدافع عن نفسها ضد حب لا تتقاسمه مع شخص آخر فهى تخضع فقط لقانون الجنس المتأصل فيها وكذلك كلمة الرفض تبقى طبيعية بالنسبة لها ، وحتى عندما تندفـع فى شهوتها العارمة لا يمكننا أن نصفها بالقساوة أو نتحامل عليها ضد ما فى طبيعتها من أنوثة .

كيف حدث ووصلت الى المدينة فهذا ما لا اذكره بوضوح ، كنت أعلم أننى اسير بسرعة وكلى استعداد على أن لا أعود الى القصر مرة اخرى مطلقا كنت أتمنى أن أختبىء أو أصبح انسانا غير مرئى ، وذهبت الى غرفتى وسـمعت صـوت طرقات خفيفـة على الباب .. قلت لمسـاعدى :

ـ لست مستعدا لاستقبال أحد .

ولكنه فتح الباب ودخل يحمل بيده رسالة :

رسالة ؟ أخذتها منه ونفحصتها جيدا ، كانت كثيفة تشبه الرزمة . وشعرت بأن يدى تحترق وأنا امسك بها ، لم أكن بحاجة لفضها ولا لأعرف من هو مرسلها وقالت :

ـ فيما بعـد ، دعها الان .

كانت غريزتى تردد .. لا تفتحها الان .. ولكننى لم استطع المقاومة بل فتحتها ورحت أقرأها .. ست عشرة صفحة من الحجم الكبير مكتوبة بخط يد مرتجفة وخط سريع شبه مقروء .. رسـالة غريبة فريدة من نوعها .. كتلك الرسائل التى يتسلمها الانسان مرة واحدة فى حياته .

وابتدأت الرسـالة بقولها :

ـ ست مرات حاولت أن أكتب لك وعدت امزق الورق مـن جديد . لم أكن مستعدة لخيانة نفسى ولا أريد ذلك بأى شكل كان منعت نفسى عن هذا مدة ثم انهرت فيما بعد تعاركت مع نفسى أسابيع واسابيع كى ابدد كيانى أمامك أو أصهره فيك ، كنت آمر يدى بأن تبقيا جامدتين لا تتحركان طيلة زيارتك لنا أو أتصنع السخرية لكى لا تخوننى نظراتى ، وتفضح ما يختلج به صـدرى وينبض به قلبى جربت كل ما هو فى أستطاعة الكائن البشرى وحتى ما هو فوق استطاعته وحدث اليوم ما حدث ، حدث ما لم أكن اتوقعه ولذلك فكرت وتساءلت عن السرعة التى حـدث فيها وفقدت أنـا السيطرة على قواى ، لاننى أعرف أنه يؤلمك جـدا أن أفرض نفسى عليك وأنا الفتاة المريضة المقعدة ، أنا المشلولة لا يحق لها أن تحب

كيف يمكنني وأنا الفتاة التي حطمها الحظ أن أكون عبئا عليك ؟ شخص مثلي ، اكرر لا حق له بالحب بل يحق له أن ينزوي بعيدا ويرتجف في احدى الزوايا لا يزعج الاخرين ويموت دون أن يدري به أحد ، حاولت الاحتفاظ بالسر حتى أستعيد قواي وأصبح فتاة طبيعية أو امرأة مثل بقية النساء وأمسي لائقة بك يا حبيبي ، عليك أن تفهم انني شغوفة بك منذ زمن بعيد .. ولكن للاسف، فحبي هذا لا يزعجك بشيء ولا يؤثر بك البتة لذلك .. أرجوك ألا تتنزعج ولا يعتريك الخوف من أجلي سانتظر وأنتظر حتى يرأف الله بي ويعيد لي صحتي كما ارجوك مرة ثانية وحياتي ، ألا تشك ولو لحظة بحبي لك ، وتذكر أنني حبيسة في زنزانتي وأن عليك أن تفكر في زيارتي ، اني أنتظر بصبر وأناة ان تأتي الي وتهبني ساعة .. وتسمح لي أن انظر اليك برهة واسمع صوتك ثم اشعر بأنفاسك تلفح وجهي المتهب ، أشعرني بوجودك .. انت سعادتي الوحيدة التي وهبها الله لي ، ولكن على أن أبقى مقعدة اروض أعصابي ملتزمة الصمت .. انتبه لكل نظرة ألقيها وكل كلمة أتفوه بها ، ولكن صدقني يا حبيبي أن السعادة وان كانت مؤلمة أحسبها بالنسبة لي أنا سعادة تامة .

ولكن ان حصل شيء فالان حصل كل شيء ، ولا أستطيع أن أخبيء ما حصل او أخفيه أرجوك لا تكن قاسيا بحكمك على لا أطلب اليك أن تحبني او تبادلني حبا بحب ، كما لا أطلب منك تضحية ولا شفقة وحتى في الحب لا أريدك أن تفكر بي وتحبني كما انا . وأرغب ايضا ان تتهاون وتتسامح في حبي لك، اذ انه الشيء الوحيد الذى لا أستطيع تحمله كما انا .

ولكن لا ، لا تخف ، وليست هذه تهديدات ولا تظنني أريدك أن

تبدل الحب بالشفقة وهو الشيء الوحيد الذى وهبنى اياه قلبك قل لى بسرعة كلمة واحدة تكفى ، فمنــذ اللحظــة التى أغلقت الباب وراءك ·· تركتنى فريسة للحزن والاسى ، كنت شاحبا عندما رأيتك فى اللحظة الاخيرة ، فقد اختفى سيعك كذلك خونتك بسرعة البرق ، ولكن لا يا صديقى لست هنا لألومك على تصرفك وافهمك جيدا انما الذى يخيفنى هى تلك الآلات التى تشدنى دائما الى الارض آت الينا من وقت لاخر وارسل لى كلمة أو أى شىء آخر ، لا فرق ، أريدك أن تعرف بأننى لا ادرى كيف افكر أو أتصرف مازلت لم تسامحنى بعد ، كما أننى سوف لا أعيش طويلا اذا رفضت لى حق حبك ؟

قرأت الرسالة مرتين وثلاثا ، كنت أعيد قراءتها ساعة بعد ساعة وكل مرة اشعر ان رأسى سينفجر وقلبى سيتحطم أمام هــذا الحب البائس · الى أن يغلبنى النعاس ولكن الاحلام تكون فى حقيقة الامر أصعب من الواقع أو بمعنى آخر هى تعبير عن الواقع واذا شئنا دقة التعبير فهى حياة نعيشها فى النوم ·· ونتمنى ألا نستيقظ منها وفى بعض الاحيان الا فى مثل حالتى فهى تصبح الجحيم الذى لا يطــاق ·

الفصـــــل الســادس

عدت مرة أخرى الى قراءة الرسالة ، ولكننى توقفت بعض الوقت وأخذت فى التفكير لان هناك ما شدنى الى الوراء ٠٠ قلت فى نفسى :

ـ لا تقرأ وخاصة اليوم ثم لماذا تشغل نفسك بهذه القضية ولا تحاول التخلص منها مهما كان الامر ، انك على ما يبدو لا تقدر على الصمود أمام هذه الحزازات ، كما أنك تزعج نفسك وتتألم امام شخص يحبك ولا تحبه ، ليذهب الى الشيطان بكل عائلة كيكسلفافا فانك لم تكن تعرفهم فى السابق ، دعهم الان ٠

وفجأة اعترتنى فكرة رهيبة ٠٠ من يدرى ٠٠ ؟ لعل أديت أقدمت على فعل شىء يضر بها ٠٠ الانتحار مثلا ٠٠ ثم ما الذى يمنعها ؟ لقد مر وقت لا بأس به ولم أجبها على رسالتها ٠٠ ماذا لو كلفت أحد الاصدقاء بحمل ردى اليها لكى تطمئن وتهدىء من روعها وتعيد اليها ثقتها فى حبى شيئا فشيئا ٠

واذا بى أتلقى رسالة ثانية منها تقول :

(مزق رسالتى السابقة ٠٠ لقد كنت مجنونة عندما كتبتها ٠٠ لا أساس للصحة فيها ٠٠ ثم اياك أن تأتى لزيارتنا غدا ٠٠ ارجـــوك ألا تأتى ٠٠ اذ على أن احتكم الى نفسى مهما كلفنى ذلك ولا ابدو بشكل يدعو الى الشفقة والرحمة أمامك ٠٠ لا تأتى أبدا لاننى لا أريدك أن تأتى ٠٠ لاننى أمنعك من ذلك ٠٠ لا تجاوب على الرسالتين ٠٠

مزق الرسالة الاولى واحرق الثانية لا تفكر بى انسانى كلية .

كنت مشتت الافكار لا أرغب فى رؤية احد .. أريد ان أسير . وأسير دون توقف ، ولكن اسير الى اين ، ليس لدى هدف أو مشروع اذهب .. اذهب .. كانت دقات قلبى تأمرنى بذلك .. وتحثنى كل نبضة على الهروب .. أذهب حيث اشاء وأهجر هذه الثكنة المعزنة ، وهذه المدينة المشئومة .

وكلمت أحد الاصدقاء فى أن اترك الخدمة العسكرية وأذهب معه الى فيينا وبعد أن حاول أن يثنينى عن هذا القرار .. وافق وصافحته بحرارة وما هى الا سويعات حتى كنا فى طريقنا الى فيينا ..

وقلت له :

ـ أشكرك :

ـ ليس هناك ما يستحق الشكر .. انه امر طبيعى أن تطلب المساعدة وأساعدك ولسوف أتصل بمدير احدى الشركات وهو صديق حميم لى وأخبره أنك محتاج الى عمل وسوف يدبر هو العمل المناسب بك وبمؤهلاتك .. ومع ذلك أريدك إن تعود الى نفسك وتختلى بها مرة أخرى ، لاننى كما سبق وقلت لك أود أن تبقى فى الجندية .. ومهما كان جوابك او القرار .. الذى ستختاره يمكنك دائما أن تعتمد على .. وستجدنى بخدمتك .

تطلعت والشعور الجارف يغمرنى الى ذلك الرجل الذى أرسله لى القدر ، لقد أراحنى بدماثة خلقه من الترجي والاستعطاف . لقد ساعدنى بكل قواه ودون أن أدرى .. ساعدنى على اعداد تقرير عاجل عن استقالتى .. وها أنا ألان حر .. بفضل هذا الانسان الطيب ، غدا سينتهى كل شىء وستبدأ حياة جديدة بالنسبة الى .

ولكن شيئا جديدا حدث ولم اكن أتوقعه ٠

وفى اللحظة التى كنت أدس يدى فى جيب سترتى ٠٠ شعرت برجفة ومقاومة ٠٠ ماذا هناك ؟ تساءلت ، ورحت أتحسس ، وتراجعت أصابعى فجأة ، لقد فهمت ، انها رسائل اديت التى مازلت أحتفظ بهـا ٠

كما أننى شعرت بقناع داخلى يتمزق ، وبسرعة البرق تكشف لى مدى الكذب والخداع الذى كنت أبنى عليه شجاعتى وافتخارى ، كنت اتهرب فى الحقيقة من آل كيكسافاما ، اننى ذاهب الان لانه لم يعد بوسعى تحمل حالة كهذه ٠٠ أن يحبنى انسان ولا أبادله نفس الشعور ٠ فعلا لم يكن هربى ناتجا عن كونى قد أهنت ٠٠ لا ٠٠ انما هو الحقيقة هرب مفتعل ملؤه الخوف والتراجع ٠

ولكننا غالبا ما نتراجع أمام شىء قد سوى وصمم ، ومازلت قد كتبت استقالتى وقدمتها لماذا تريدنى ان اهتم بها أو أفكر فيها ٠٠ لتنتظر ٠٠ أو لتذهب الى الجحيم ٠٠ ستجد بملايينها رجلا آخر ٠٠ ولنفترض انها لم توفق ، فما دخلى أنا بالموضوع ؟ وها أنا أتـــرك الجيش شفيت ام لم تشفى ، فليس هذا من اختصاصى ، ولست ذلك الطبيب البارع حتى ولا شأن لى بعلوم الطب قطعيا ، وذكرتنى كلمة طبيب بالدكتور المعالج لها دكتور كوندور ، انه المسئول عــن علاجها وشفائها عليه أن يكون بجانبها ولا يفارقها دائما الم يدفعوا له من أجل ذلك ؟ انها مريضته هو وليست مريضتى أنا ؟ ولعـــل احسن ما أقوم به تجاهها هو الذهاب والبحث عنه ، وأخبره أننى انسحبت من القضية وتركت كل شىء على عاتقه هو ليتصرف كيفمـــا يشـــــاء ٠

وصممت على ذلك ، انما كان على فى الدرجة الاولى ألا أدع الشك يتسرب الى نفسه بأننى أتهرب من آل كيكسلفافا وألا يعرف لما حدث بينى وبين الفتاة ، ثم اذا حدث تلقائيا وسألنى سأنكر كل شىء وانفى كل علاقة مشبوهة .

توقفت العربة أمام العنوان الذى سجلته نقلا من دليل التليفون ، وعلى مدخل المنزل قرأت اللافتة فاطمأن قلبى الى العنوان الصحيح .. وتطلعت الى ساعتى فوجدتها تشير الى السابعة وصعدت الى حيث الشقة التى يقطن بها وأخذت فى قراءة بعض المجلات الطبية .. ولاحظت أن هناك سيدة يبدو انها لا تبصر ، تروح وتغدو فى الشقة ، ثم انها تبادلت معى حديثا عصبيا عن سبب وجودى فى هذه الفترة التى لا يستقبل الدكتور فيها أحد ، ولم يكد صوتها يعلو حتى دخل الدكتور كوندور وحيانى بحرارة ، ثم تطلع الينا وفهم الوضع وما يدور بيننا من حوار عصيب ، ولكنه استمر هادئا مسيطرا على برودة أعصابه .

وضع الدكتور يده فوق المرأة وقال :

ــ اقدم لك يا عزيزى الكولونيل زوجتى .

فانحنيت ثم تمتمت بعبارات الترحيب .

ثم قال الدكتور لزوجته :

ــ انه لجميل منك أن تجلسى الى الكولونيل وتحدثيه ، طيلة غيابى ، بادرة طيبة منك ولا شك .. أشكرك عليها يا عزيزى :

ــ اعذرنى يا سيدى .. كنت أقول له أن عليه ان ينتظر حتى تتناول طعامك .. كما أننى أخبرته تفصيليا بما يعانيه الطبيب من

شفاء اذا ما أراد خدمة مواطنيه ، والعمل على تأدية رسالة الطبيب حق تأديتها . سامحنى اذا قلت له أن يرجع ويقابلك غـــدا ..

ـــ انك مخطئة فى هذا يا عزيزتى ، ان هذا الرجل لا يشكو من أى مرض كان ، انه صديق وحسب . ومن عادته أن يزورنى كلما أتى الى غيينا ، أما السؤال الاكبر هو ، ماذا أعددت لنا كطعام غداء ؟ وعشاء .

ـــ لا .. أشكرك يادكتور ، على أن أذهب فى الحال . اذ لا أريد ان اتأخر عن القطار ، مررت من هنا كى احمل اليك التحيات من هناك ويمكن تأدية ذلك فى غضون دقائق قليلة .

وسأل الدكتور وهو يتأملنى جيدا :

ـــ هل كل شىء على ما يرام هناك ؟

ثـــم أردف :

ـــ أن امرأتى تعرف ما يصمنى اكثر مما أعرف أنا . اننى جائع الان ولا يمكننى أن أفعل شيئا ما لم اتناول ما أسد به رمقى .

ثـــم قال مخاطبا امرأته :

ـــ هيا بنا نتغدى يا عزيزتى سينتظر الكولونيل برهة سأعطيه كتابا يقرأه وانه يود الخلود الى الراحة .

عفوك ياسيدى لن يطول حديثنا اكثر من عشر دقائق اذ لا أريد أن يفوتنى القطار كما سبق وأن قلت لك .

مرت دقائق وعاد كوندور يقول :

ـــ انتظرنى سأعود اليك بعد عشرين دقيقة ثم نتكلم على كل شىء بالتفصيل تمدد فوق هذه الكنبة وانتظر ان وجهك شاحب

ولا يعجبنى يا عزيزى : تبدو تعبا ، منهكا ، علينا أن نستعيد قوانا قبل الشروع بالحديث ..

ونادته امرأته فأجاب :

— نعم يا عزيزتى كلارا ها انا آت كنت أعطى الكولونيل كتابا كى يتسلى به ولا يزعجه الانتظار .

كنت تعبا بالفعل وما أن استرخيت فوق الكنبة حتى نمت . فجأة شعرت بيد تربت على كتفى ، أفقت وإذا بى أمام الدكتور لقد دخل الغرفة على مهل ولم يرد ازعاجى :

— ابق ، ابق ، سأجلس بقربك ، سأطلب اليك شيئا واحدا هو أن نتحدث بصمت منخفض فأنت تعرف أن فاقدى الابصار مرهفو السمع بالاضافة الى الذكاء الذى يتمتعون به ، قل ما نريده . فمنذ رأيتك عرفت ان الامور لا تسير كما أرغب .

— هذا ما كنت أتوقعه ، كيف اننى لم ألاحظ منذ البداية هذا ، فبقدر ما نشاهد المريض ننسى المرض هذا يعنى اننى تنبأت بمن اندس بين الفتاة وبيننا أنك تذكر جيدا يوم سألت والدها اذا ماكان هناك انسان آخر حضر الى داره وكلم الفتاة بشأن علاجها فنفى ، انما المؤلم فى المسألة كوننا لم ننتبه الى النتائج الا بعد حدوثها ، يا الهى كن عونا لهذه الفتاة المسكينة .

— انى معك فى كل شىء يا دكتور ، فجنونها ونتائجه أكثر من أن تحصى ولذلك يجب ان تنتزع كل هذه الامور من رأسها ، يجب أن تقول لها :

— نقــول لها ماذا ؟

ـ حسنا ان هذا الهيام ما هو الا مجرد تصرف صبيانى ، تصرف مبهم ، عليك ان تحاول مهما كلفها الامر .

ـ يريدنى ان اقول لها لا تشعرى بالذى يدور فى خلدك ألا تحى الذى تحبينه . هل سبق لك وسمعت ان المنطق تغلب على الحب العنيف أم تريدنى أن آمرها قائلا اذهبى ونامى ، ابتعدى عن الحب لانك فتاة مقعدة لا تصلحين لشىء ، ثم هل تصورت النهاية التى سيؤدى اليها كل هذا ؟

ـ ولكن يجب عليك ان .

ـ لا تخجل ودعنى أسألك .. ما هى الظروف التى تحول دون حبك لاديت ؟

ـ اية ظروف تعنى ؟

التى تجعلك تنفر منها ؟

ـ ليس هناك شىء مما تدعيه انما الذى شدنى اليها هو حزنها واقعادها هو الالم الذى يحز فى نفسها .

ـ حسنا ان هذا يطمئننى فى بعض النواحى .

ـ ألا تعلم أننى كتبت استقالتى من العسكرية ؟

ودفعت اليه بالرسالة المكتوبة التى تفيد ذلك وبعد أن قرأها قال :

ـ اليك كتابك لا اريد أن أكون شريكك فى الجريمة ستقع عليك وحدك مسئولية كل ما يحدث سواء لك أم لها .

ومرة ثانية قال الدكتور :

تتركها تظن ...

— دعنا من هذا الان لا تفكر به فكر فقط فى مساعدة الغير دون تمييز فقط فى هذه الناحية ، لا تتركها تظن فى هذه الفترة أن حبها لك يزعجك ، كرر كل صباح ثمانية أيام من الرجولة الحقة ألا تستطيع هــذا ؟

قلت دون تردد :

— بلى .

ثــم أضفت :

— موافق .. موافق .

تملكنى شعور غريب وأنا أهبط السلم ، ماذا تغير فى ، كنت أردد حتى أستحوذ على ثقة الجميع ؟ ما الذى جعل هذا الانســان الغريب يستكين الى ؟ من أجل فتاة تموت حبا وهياما بى ؟ أم هناك من يريد أن يوهمنى ذلك .

لم أعرف سوى الساعة لا بل الدقيقة التى سألقى بها أديت كنت أعرف أن لقاءها سيكون حارا ، وستطلب الى اذا ما كنت قــد سامحتها أم لا أو أنها ستقول هل يؤلمك حبى حتى تبتعد وتهرب منى؟ ان نظرة واحدة تكفى لهدم ما اتفقت عليه أنا وكوندور أما اذا أحسنت التصرف فسأنجو وأنقذ حياة انسانة .

وما أن عبرت ردهة القصر فى اليوم التالى حتى لاحظت أن أديت لم تكن مستعدة لتستقبلنى بمفردها ، لقد أخذت الاحتياطات اللازمة اذ أننى سمعت النسوة يتحادثن معها بفرح ، من المؤكد أنها دعتهن لمثل هذه اللحظة العصيبة .

أسرعت ايلونا لاستقبالى قبل أن أدخل الصالون ثم قادتنى من يدى وأخذت تعرفنى وتقدمنى الى الموجودين وتحاشيت أن أنظر

الى اديت ولكننى كنت أشعر بنظراتها تلهب كل شىء فى ، وجاءت أينونا وأسهمت بتسوية الامور وقالت :

ــ يمكنكما أن تلعبا البريدج كما انه يجب على ان أعد لوازم السفر وسأعود الأكما بعد ساعة واحدة •• وسألت أديث :

ــ هل تريدين اللعب ؟

أجابت وهى تتطلع الى الارض :

ــ اذا لم يكن لديك مانع •

بدت أديت عاجزة عن اللعب فى الدورة الثانية اذ بدأت تضرب ضربات خاطئة ثم اعتراها رجفان خفيف فى أصابعها فدفعت الحجارة جانبا وقالت :

ــ هذا يكفى ، أعطنى سيجارة •

ناولتها واحدة وأشعلتها لها وما أن لمع النور حتى تأملتها مليا وتلاقت انظارنا ، كانت عيناها متعبة شاردة يتآكلها الغضب البارد المخيف وقلت مرتاعا :

ــ لا ، لا أرجوك •

تراجعت الى الوراء وهنا رأيت جسدها يرتعش بينما كانت أصابعها تنكمش أكثر فاكثر بذراعى الكرسى •

ورجوتها للمرة الثانية انه لا داعى للانفعال •

ولم اقل هذه الكلمات لاطفىء نيران العاطفة ولكن البكاء المرير انفجر ، بكاء مؤلم مؤثر يقطع نياط القلوب •

وانحنيت فوقها ووضعت يدى على كتفها لتهدئتها وارتجفت وكأن تيارا كهربائيا صعقها أو نوعا من التمزق قد أصابها •

وفجأة توقف الاهتزاز فى جسدها ولم تمد تتحرك ليخال أن الجسد ينتظر ويتحسس كى يفهم ما يعنى هذا الاحتكاك .

كان رأسها مائلا الى الوراء وان من يراها على هذا الحال يظن انها نائمة تتلذذ من جراء حلم لذيذ .

لم أعرف كم استمر ذلك لان مثل هذه الاحداث لا تدخل فى دوران الزمان .

بدأت أتضايق من جمــودى هــذا ، لم يكن الحب ليزعجنى أو لمسات اليد ، هى تلك الاصابع التى تروح وتجىء .. لا .. انما شعرت بأن يدى باتت ميتة لا حراك فيها وكأنها ليست عضوا حيــا من جسمى الملتهب . كنت أريد أن أضع حدا لهذا اللعب الخطير وهكذا بدأت على مهل أسحب يدى رويدا رويدا ولكن الفتاة لاحظت قبــل أن أتبينه انا وفجأة وكأن شــيئا ما مسها ، تركتها ثــم تقلصت أصابعها وراحت تتلاعب بشعرها وعادت العاصفة تنذر فى الافق ، وهمست قائلا :

ــ لا .. لا .. ستدخل أيلونا عما قليل .

لم يؤثر فيها هذا التنبيه وظنت ان اعادة يدى الى حضنها من جديد ما هو الا شفقة منى وليس حبا وكدت أفشل من جديد .

عبثا رددت أقول فى نفسى : دعها تحبك تجاهل ؟ تعامى طيلة هذه الايام الثمانية . لا تصنع شيئا يجعلها تظن بأنك تخدعها كن طبيعيا هادئا كل الهدوء حاول أن تزيد صوتها فرحا كن ناعما وأنت تلمس يديها ، ان الذى يحب يتمتع بقوة رؤيا فائقة تساعده على دراسة الشخص الذى يحب ، وهكذا ستنهار أعصابى دفعة واحــدة

أمام نظراتها الفاحصة ولذلك عندما كانت ترفع نظرها الى كنت أنا أخفض نظرى الى الارض ٠

وحدث بعد مرور ثلاثة ايام انني كنت وأدبت نتناول الطعام مع والدها وأبلونا وحدث بعض الضجيج فرحت أديت سكينها فجأة وقالت :

ـ اذا كان الضجيج يزعجك يمكنك أن تبقى في الثكنة فانه لا يزعجنا ابدا : تمتم والدها وكاد يغص بالطعام :

ـ ما بك يا ابنتى ؟

ـ هذا صحيح يا أبى فلماذا لا يأخذ عطلة لنفسه اذا كان الامر يتعلق بى مباشرة فانى أمنحه اياه بكل سرور ٠

وتبادل الاب وأيلونا النظرات المخيفة لانهما يعلمان ما يعقب هذا الاعتداء المبهم ، وقلت أنا :

انك على حق يا أديت لست بذلك الرفيق وخاصة عندما أصل الى هنا منهوك القوى اعرف تماما أننى أزعجك اليوم انمــا عليك الاعتصام بالتسامح وفكرى انه لم يبق الا ثلاثة أيام فقط ويصعب على المجىء الى هنا اذ لم يتبق الا أربعة أيام فقط على رحيلك الى سويسرا للعلاج :

فاجأتنى بضحكة هستيرية وأزاحت نظرها بعيدا وقالت :

ـ آه ، اربعة أيام انه يعرف تماما كم يتبقى له من الوقت ليتخلص منا حتى انه يعد الساعات ، وأظنه يقيد ذلك فى مفكرته ٠

كان ضحكها يزداد وجسدها يرتجف أكثر وأكثر حتى خلناها تحاول الوقوف وتستعد للخروج وقالت أيلونا :

ـ سأذهب لاستدعاء جوزيف •

ولكن أديت أشارت لها واعتمدت عليها وعلى والدما في حمنيا الى غرفتها وغادرت الحجـرة دون أن تتفوه بكلمة أو تستأذن في الانصراف •

بقيت وحيدا حتى عادت ايلونا وأخذت في الاعتذار الى ، وكنت اشبه بانسان سقط لتوه من الطائرة ويحاول النهوض دون أن يعرف ماذا حدث له • وقالت أيلونا :

ـ عليك أن تفهم جيدا انها لا تخرج أبدا ان ذكرة السفر تزيد من ارتباكها وقلت لها :

ـ أجل يا أيلونا انني أعرف ذلك اعرف كل شيء ومن أجل هذا سأعود غـدا •

واتصلت أيلونا بى تليفونيا في اليوم الثانى ورجتنى فى عـدم الحضور اذ أن أديت لم تتحسن حالتها وانها تخشى أن ألقاها فتسوء الاحوال عمـا هى عليه وأنهت المكالمة قبـل أن أطرح عليها بعض الاسئلة •

ولم يعد باستطاعتى المقاومة وأعصابى التى باتت لا تحمـل شيئا يجب وضع حد لهذه المأسـاة •

وفى يوم وصلت الى الثكنة بعد أن قمت بالتدريبات المعتادة وما أن دخلت الى حجرتى حتى وجدت السيد كيكسلغافا ينتظرنى وكان من هول المفاجأة ما عقد لسانى عن الكلام حتى قال الرجل :

ـ أعذرنى يا سيدى الكولونيل اذا دخلت حجرتك بهذه الطريقة ودون أن أعلن عن اسمى ، انما رجانى الدكتور كوندور أن أنقل

تحياته اليك انه يعتذر عن عدم لقائك لارتباطه بالسفر فورا الى ذ.بنا ؛ومن اجل هذا سمحت لنفسي بالدخول اليك .

— انني أعد هذا تلطفا منك يا سيدى وأقدر موقفك تماما ، تفضل بالجلوس .. وتناول الحديث عن ايلونا بعض الوقت ثم سألته عن أديت فنظر الى بحزن وقال :

لقد اختارت الثياب والكتب التى يجب أن تحملها معها حتى الفراء الثمين الذى أحضرته لها من فيينا وضعته فى علبته الفاخرة وفجأة حدث ما لم أكن أتوقعه لا أنا ولا أيلونا استطعنا أن نفسر ذلك التغيير المفاجىء اذ انها راحت تقسم انها لن تذهب مهما كانت الظروف وانه ليس هناك من قوة على الارض تجبرها على ذلك ستبقى فى البيت ولو اشتعلت به النار وأتت على كل ما فيه وسوف لا تثير هذا الموضوع ثانية وسألته :

— لماذا تفعل هذا ؟

وقال :

— انها تقول انها لا تريد أن تنخدع ثانية ان العلاج الموعود ليس سوى وسيلة لابعادها عن الشفاء ، لقد قررت أن تبقى .

وقلت له :

— لماذا لا تفعل كل هذا انني فعلت لها كل شيء لاهدئها قلت لهـا :

— لا شيء لم تقل لها شيئا عليك أن تعرف سكوتك يجعلها مجنونة وأنها لا تنتظر منك سوى كلمة واحدة ، الكلمة التى يقولها المحب لحبيبته وخاصة عندما يكون واثقا من شفائها لماذا تريدها

أن تفتخر أكثر مما تفعله فتاة أخرى ، انها لن تتضرع اليك ولا تترجاك ولكنك لا تقول شيئا ولا حتى كلمة تجعلها تطير فرحا وترقص اعتزازا، اننى عجوز مريض وبعدى يؤول اليك كل شئ ملايينى وقصرى يمكنك ان تحصل على كل شيء وستكون سببا فى سعادتها .

وما أن انتهى من حديثه حتى سقط فوق مقعده مستريحا من التعب وكنت أنا أشعر بانهيار تام فى قواى عندئذ فهمت قوة الألم الذى يعانى منه هذا المخلوق البائس وأبديت كل استعداد لتعزيته فقلت له وأنا أنحنى فوقه :

ــ ثق بى .. وسأفعل كل ما بوسعى انما الشيء الذى قلته فى آخر كلامك مستحيل ..

وتسمر الكهل وراح يتطلع الى شاردا مشدوها وأخيرا استطاع أن يقف ويقول بصوت شبه مسموع :

ــ اذن فقد انتهى كل شيء .

واستدار ليغادر الغرفة .

ولكننى قلت له :

ــ أعدك أن يتم ذلك بعد الشفاء ، قل لها ذلك ، وسأحضر انا غـدا لأكرره لها ..

الفصـــل الســابـع

وذهبت فى اليوم التالى اليهم ودخلت فوجدت فتاة لم أكــد أتعرف عليها تجلس فى الكنبة وقد ارتدت فستانا جميلا يشع النور من عينيها وينبعث الامل من محياها وما أن رأتنى حتى قالت :

ــ واخيرا أتيت ٠

انها أديت كانت تبدو جميلة اليوم أكثر من أى يوم مضى بل انني اكتشفت انها أحلى من ايلونا ثم استمرت تقول :

ــ انني أعرف ما قلته لابى وكذلك ما فعلته من أجلى ومــن اجلك أنت سأعمل كل ما من شأنه أن يساعدنى فى علاجى اجل يجب أن أشفى لاجلك أنت ٠

يا للعجب من هذه الفتاة كأن تمنياتى لها تملك قوة الحيـــاة او الموت واجاب والدها :

ــ ان شــاء الله ٠

لم يعد بامكانه البقاء حيث هو الان لان الدمع قد بلل نظارته فنزعها ومسحها بمنديله واقتربت منه وأخذته بين أحضانى اعترافا بالجميل واجتاحت الجميع موجة من التأثر والانفعال وامتلأت العيون بالدموع وعندما تركته نظرت الى اديت واذا بها تتطلع الى بشــوق وهيام فعرفت أنها تنتظر منى أن أقدم على شيء يطمئنها ٠ فانحنيت فوقها وقبلتها من فمها وتمت الخطوبة ، وفجأة تناولت اديت يــدى وقالت :

دعها لى لحظة ... أرجوك

لم أكن أعلم ماذا تريد أن تفعل انما شعرت ببرودة في اصابعي .. كانت تلبسها خاتما ثمينا الى جانب خاتم الخطوبة لم أعبأ بذلك تناولت يدها وقبلتها قبلة رقيقة .

وعدت الى الثكنة وما أن دخلت اليها حتى أخذت اسمع كلمات التهكم من زملائى على السيد كيكسلفافا وابنته وضحكات السخرية من المهنة السابقة للوالد وعجز ابنته .

ودخلت الى غرفتي وخلوت الى نفسي أفكر انني اعرف ماذا يجب على أن أفعل ، خطبت الفتاة مساء وبعدها لم أستطع ان أواجه مجموعة قليلة من الناس فكيف أخرج بها الى الدنيا .. أأحملها أم أتقاعد مثلها ، يا للجبن والخيانة .. لقد خنت تلك الفتاة التى أحبتنى بكل جوارحها .. انسانة مريضة وبريئة وعلى مسمع منى تركت رفاقى يتهمجون عليها وعلى أبيها سيعلم المعسكر كله غدا بذلك .

ليس هناك من حل سوى الانتحار ، سأكتب الى اديت وأخبرها بذلك انه أفضل من أن أخون حبها أبد الدهر ، وظلت طوال الليل تؤرقنى الافكار حتى اتخذت قرارا مقابلة رئيسى فى العمل .

وما أن أشرقت شمس الصباح حتى توجهت الى رئيسى وشرحت له كل الموضوع ونظر الى نظرة فاحصة وقال :

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ جئت أستأذنك فى النقل من هنا .

وفكر الرجل قليلا ثم قال وهو يربت على كتفى :

اذا كان هذا ما تريده ، فأنا أوافق لك عليه .

ـ شكرا ، يا سيدى .

وانتهت القضية بسفرى الى سازلو ، كما أراد رئيسى الكريم الخلــق .

* * *

وصلت سازلو فى المساء وحينما وصلت أرسلت برقية الى كوندور واخبرته بما حدث ورجوته أن يتصل بأديت ويخبرها عن هروبى وأسبابه وبينما أنا مسترخ فى حجرتى بالفندق اذا بالخادم يخبرنى من خارج الغرفة بأنه توجد مكالمة تليفونية لى .

واندهشت من يعرف أننى هنا غير كوندور وهل وصلت اليه البرقية فى غضون هذه الساعات القليلة ؟

قفزت من الفراش واندفعت الى الخارج .

وتناولت سماعة التليفون : ألو .. ألو ..

لم أحصل على رد : فأعدت الكرة وكانت النتيجة واحدة .

وسألت موظفة التليفون :

ــ هل تلقيت الاشـــارة ؟

فأجابت :

ــ لا يا سيدى انه نداء من فيينا .

اذن هو من كوندور ويبدو أنه أعلم اديت وسامحتنى على ذلك وانها الان تنتظر عودتى وأخذت أنتظر المكالمة ولكن الموظفة قالت :

ــ لقد الغيت .

وعدت الى غرفتى ونمت حتى الصباح واتصلت بكوندور فى الصباح الباكر ووجدته فى منزله واستمر حديثى معه ثلاث دقائق عرفت بعدها كل شىء .. لقد وصـــل الى القصر وأخبر أديت أنى غادرت الثكنة ولم تتسلم أديت البرقية التى ارسلتها الى كوندور

ظننت أنى تركتها الى الابد وألقت بنفسها من الشرفة ، وعندما استدعى كوندور كانت لا تزال على قيد الحياة .. أما عندما الغيت المكالمة فكانت قد فارقت الحياة .

ماتت أديت اذن .. لا .. لم تمت .. أنا قتلت الانســانة الذى أحبتنى .. ولكن هل احببتها أنا .. نعم .. أحببتها .. انها كانت سبب سعادتى ولم أكن اعلم ذلك ، هل دخلت الجندية لاقتــل الاعداء أم لاقتل الاحباء .. ما هذا .. أهذه دموعى .. لا .. انه اعترافى ، انه دليل الاثبات على جريمتى .

واستحالت الغرفة الى ظلام .. الى سراب .. وسقطت انا فى الهاوية .. وحدى .

تمت

رقم الايـداع ٨٩/٧١٣٠



وتوقفت الفتاة عن اللعب .. ثم قالت

- هذا يكفى .. أعطنى سيجارة

ناولتها واحدة .. وأشعلتها لها .. وما أن لمع النور
حتى تأملتها ملياً ، وتلاقت أنظارنا ..
كانت عيناها متعبة .. شاردة يتآكلها الغضب
البارد المخيف وقالت فى ذعر

- لا .. لا أرجوك

تراجعت الى الوراء ، وهنا رأيت جسدها يرتعش
بينما كانت أصابعها تنكمش أكثر فأكثر بذراعى
الكرسى . ورجوتها للمرة الثانية أنه لا داعى للإنفعال
ولم اقل هذه الكلمات لأطفىء نيران العاصفة
ولكن البكاء المرير إنفجر .. بكاء مؤلم مؤثر يقطع
نياط القلوب .
وانحنيت فوقها ووضعت يدى على كتفها لتهدئتها
وارتجفت وكأن تياراً كهربائياً صعقها أو نوع من التمزق
أصابها .

...

شباب إمرأة
قصة طويلة ممتعة من روائع الكاتب الايطالى المعروف
البرتو مورافيا وإعداد خليل حنا تادرس.


